عاشِقَةٌ مِنَ الجِنِّ

محمد عبد الجليل

رواية

إهداء :

إلى أخي الصغير أسامة،
إلى من يحمل قلبًا لا يخاف المجهول،
وعينًا تلمع شغفًا بكل ما هو غامض وعجيب.
إلى من يرى في عوالم الجن والأسرار
متعةً لا يفهمها إلا من أحبّ الخيال بصدق،
ويؤمن أن وراء كل بابٍ مغلق
حكايةً تنتظر من يجرؤ على فتحها.
هذه الرواية لك...
ليست لتُخيفك، بل لتأخذك في رحلةٍ
بين الحقيقة والخيال،
وتُريك أن الشجاعة ليست في عدم الخوف،
بل في التقدّم رغم الخوف.
كن دائمًا كما أنت...
مُحبًّا للغموض، باحثًا عن الأسرار،
ولا تنسَ:
بعض الأبواب... تُفتح،
لكنها لا تُغلق كما كانت **أبدًا.**

محمد عبد الجليل

عاشقة من الجن

غروب

الشَّمْسُ عندَ المغيب، تَنزِلُ من الأُفُقِ الغربيِّ هابطةً من أعلى إلى أسفل، مُحَمَّرَةً خجلًا، تُريدُ الذهابَ إلى بيتِها ومسكنِها، أو كفارسٍ شَهِدَ معاركَ الشروق، وقاتل وبارز حتى بلغ في منتصف النهار ذروةَ النصر، ولكنَّ الجراحَ أسخنته، والحروبَ أرهقته، فأراد أن يأخذ استراحةَ مُقاتلٍ.

أصواتُ الناس: النداء، البكاء، الضحك، الصراخ، العويل؛ هرجٌ ومرجٌ، حيصٌ وبيصٌ.

أصواتُ أطفالٍ يتخاصمون، وأصواتُ أطفالٍ أُخرى تُثير الفتنةَ والتحريشَ كي تُوقِعَ الضربَ واللطمَ بين المتخاصمين،

فيُنشِبونها حربًا طفوليةً داميةً، تُبيدُ الأخضرَ واليابس؛ قذائفُها أحجارٌ من الطين الأخضر أو الطين الأحمر، أو قطعةُ زجاجٍ مكسورة، أو قطعةُ حديدٍ صدئةٍ قديمة، أو أي شيءٌ يجدونه أمامهم، حتى لو كان عظمًا باليًا خاليًا من اللحم.

نيرانُ هذه الحربِ ودخانُها الناشئُ هو الغبارُ الذي يُثيره أصحابُ الفتن ومن يريد للحرب أن تستمر، ومدافعُها أيديهم الصغيرة، القصيرة، البريئة، الناعمة، التي لا تقوى على القتل أو السبي.

صياحُ ديوكٍ متفاوتٌ، ورفرفةُ أجنحةٍ متتالية، نهيقُ حمارٍ في طرف الحي، وثُغاءُ عُنَيْزاتٍ في الطرف الآخر من الحي، وعصافيرُ تُغرِّد في أعلى شجيراتِ "النيم" الموجودة في ذلك المنزل المهجور أمامي، مهجورٍ منذ زمنٍ بعيد، زمنٍ بعيدٍ جدًّا...

غرفةٌ كبيرةٌ مُقسَّمةٌ إلى مجموعةٍ من الغرف، ربما أربعُ غرفٍ، لا أدري. وخلفها مجموعةُ أشجارِ "النيم"، متراصَّةٌ في صفَّين؛ في كل صفٍّ خمسُ شجيرات، وبين الصفَّين من الأشجار قمامةٌ ضخمةٌ ومكبٌّ للنفايات كبير.

الغرفةُ الكبيرةُ المُقسَّمةُ أمام هذه الأشجار التي على حوافِّ مكبِّ القمامة كحادٍي يسوقُ الجمال، أو إمامٍ يُصلِّي بالناس...

وهناك مجموعةٌ من النساءِ والجواري قادمةٌ من الجهةِ الغربيةِ للقرية، مَرَرْنَ بميدانِ القرية، أثوابُهُنَّ ساقطةٌ من فوق رؤوسِهِنَّ على أكتافِهِنَّ وصدورِهِنَّ، وكلُّ واحدةٍ منهنَّ تحملُ رُزمةً من الحطب على رأسِها، وربما تجرُّ إحداهنَّ مع

ذلك غصنًا من فروعِ "المسكيت" اليابسة، فأَثَرْنَ بذلك غبارًا كثيفًا يبلغُ فوق رؤوسِهِنَّ، كاد الغبارُ يُوارِيهنَّ عنِّي وأنا أنظرُ إليهنَّ من موضعي هذا.

وكان من عادتي أن أخرجَ في مثل هذا الوقت من المغيب، عند غروب الشمس، كي أُغيِّرَ من نفسي قليلًا، وأُروِّحَ عنها، وأتنفَّسَ من نسائمِ الغروب برودتَه وطراوةَ هوائه، وأتأمَّلَ أحوالَ المارَّة، الذاهبين والرائحين. فعند المغيب ترجعُ كلُّ الأشياء إلى مستودعاتها؛ فترجعُ الطيورُ إلى أوكارها، وترجعُ الوحوشُ إلى وِهادها، وترجعُ الثعابينُ والعقاربُ إلى جحورها، وترجعُ الدواجنُ ومعها صغارُها إلى أقفاصها، والأشباحُ إلى مهاجعها، والإنسانُ إلى بيتِه ، وترجعُ كلُّ المخلوقات عند المغيب ووقتِ الغروب إلى مساكنها ومستقرَّاتها؛ فهذه أسرابٌ من الطير فوق رأسي

تسيرُ في مجموعاتٍ وهي راجعة، بعد أن ملأت بطونَها ممَّا رزقها الله. هناك طيرٌ أكبرُ حجمًا يسيرُ في شكلِ مثلثٍ له رأسٌ وكذلك زاويتان، وهذه أسرابٌ من الطير تسيرُ على خطٍّ مستقيم، فكأنها تتسابقُ في هذا الهواء الواسع والفضاء الرحب.

وتلك أسرابٌ أخرى صغيرةُ الحجم، يتجاوزُ عددُها المئة، ولكنها، في عددِها هذا واصطفافِها، مهيبةُ المنظر، كأنها جحفلٌ عظيمٌ أو جيشٌ جرَّار.

وهذه مجموعةٌ من السحب تسيرُ وتسير، لكني لا أدري إلى أين؛ ربما إلى بلدةٍ أخرى غير هذه البلدة، وإلى أرضٍ أخرى غير أرضِنا هذه...

وهناك، على جدارِ إحدى المنازل، قطيعٌ من الأغنام يسيرُ وهو مُطأطِئٌ رأسَه، كأنَّه يرى في هذا الوقت ما لا نرى.

وهذه مجموعةٌ من البعوض خرجت من تلك القمامة، منازلُها هناك، في مكبِّ النفايات الموجود بين أشجارِ "النيم" في ذلك المنزل المهجور. ها هو البعوض يطنُّ طنينًا حادًّا أسمعه من على بُعد أمتار، يحملُ أنيابًا حادَّة، كان يُحِدُّها النهارَ كلَّه ويَسُنُّها. أراه هناك يسيرُ أمامي، وهو يعلو وينخفض كموجةٍ في بحرٍ هائج.

وهناك، في نهاية الطريق الذي أقف عليه، أرى مجموعةَ النسوة والجواري يحملن فوق رؤوسِهِنَّ رُزَمَ الحطب، ويجرجرن فروعَ "المسكيت"، وقد انضمَّ معهنَّ مجموعةٌ من الرجال والصبيان، راكبين على الحمير، وهم عائدون من المزارع وجمع الحطب.

هذا هو المنظرُ الذي يُخرجني من المنزل لأنظرَ إليه، وقد افتُتِنتُ به: الطيورُ الراجعة، والبعوضُ الهاجم على المنازل، والنساءُ والجواري العائدات من التحطيب، والرجالُ والصبيان الآيبون من المزارع والحقول، ونسائمُ الهواء الرطب، وهبوبُ المغيب الذي يُحرِّك الروح. هذا هو ما يُخرجني في هذا الوقت؛ لكن جيوشَ الظلام المتربِّصة بالضياء، والتي تتسلَّل من الآفاق البعيدة، وتتسلَّق نحو كبد السماء، سرعان ما تبتلعُ هذا كلَّه، وتهزمُ ضوءَ النهار الواضح، وتقتلُ آخرَ ما تبقَّى من شعاع الشمس.

وها هي الشمسُ تنهار أمامي عند المغيب، ودماؤها تَرشح في صفحة السماء.

هذا الظلامُ لا يدعني أتمتَّع بهذه المناظر الجميلة؛ فسرعان ما تختفي الرسومُ والأشباحُ والمنازلُ والناس، فتطغى عليهم جحافلُ الظلام، فلا ترى عيناك إلا الظلام... فقط الظلام.

* * *

ولكنني سمعتُ صوتَ طفلٍ يبكي بكاءً حارًّا، يكادُ يمزِّقُ حلقَه بصراخه ونحيبه الحزين، المؤلم، الموجِع.

كان صوتُ الطفل آتِيًا من تلك الغرفة الكبيرة المهجورة، كانت مهجورةً وخاليةً تمامًا من أيِّ شيء، ولا تسكنها الطيورُ ولا حتى الحركات؛ فقط يسكنها السكونُ والصمتُ الهادئُ الغامض.

كان الظلامُ قد حلَّ بالفعل، وهناك في السماء، في الأفق الغربي، خرجت "الزهرة"؛ كوكبٌ مُضيءٌ وجِرمٌ سماويٌّ

خلاب، تزدادُ توهُّجًا ورقصًا وطربًا كلما طغى جنودُ الظلام على القرية، وأحكموا سيطرتَهم على مخارجها ومداخلها، وأسروا رسومَ المنازل وصورَ الأشياء، وأخرج الليلُ أسرارَه البشعة ومخلوقاته الغريبة، وأعمل في بقايا النهار فتكًا وسلبًا وتعذيبًا...

تلك الشبابيكُ المُغلقةُ بإحكام، والبابُ المُوصَدُ بطريقةٍ يصعب على الغبار الذي تجلبه الرياح أن يدخل إلى هذه الغرفة.

كيف دخل الطفلُ إلى تلك الغرفة المهجورة؟
كيف دخل إلى هناك والشبابيكُ مغلقةٌ والبابُ مُوصَد؟
من وضعه؟ من معه؟
لماذا يبكي؟

هذه الأسئلةُ كلُّها انفجرت في رأسي حين سمعتُ بكاءَه، مثل بركانٍ انفجر في أعلى قمةِ جبل، فخرجت حممُه من فوهة ذلك الجبل، وسالت على الجبل تُحطِّم صخوره وتُذيبها، كما تُذيب هذه الأسئلةُ دماغي. فخَّكني الفضول، أنا إنسانٌ فضوليٌّ، لديَّ حبُّ استطلاعٍ قاتل...

لكن لماذا الطفل؟ لماذا هناك؟

تحرَّكتُ من موضعي، وأنا أمشي نحو تلك الغرفة الكبيرة المهجورة، الفارغة، الخالية، الصامتة...

كنتُ أسير، أسير نحو الغرفة الكبيرة المهجورة، أسير نحوها ولا أُلقي بالًا لما يفعله عساكرُ الظلام، أسير نحو الغرفة المغلقة الشبابيك، المُوصَدة الباب، أسير ولا آبه بالناس الذين لم يبقَ إلا أصواتُهم، أمّا صورُهم فقد ابتلعتها جدرانُ المنازل وسترها عساكرُ الظلام. كنتُ أسير، وأنا ملآنُ بالفضول،

فضولي حادٌّ يقتل كلَّ شعور، فلا أشعر إلا بالعزيمة القوية على المشي...

هناك، على بُعد عشرة أمتار، تقف الغرفة كجبلٍ وحيدٍ في صحراء واسعة، أو كقطعةٍ من الليل في نهارٍ واضح. كنتُ أسير وأنا أحثُّ الخطى، أسير لعلّي أروي فضولي، لعلّي أُروِي ظمأي الذي أحدثه حبُّ الاستطلاع.

كان البابُ أشدَّ ظلمةً من جدران الغرفة والشبابيك المغلقة، والطفلُ لا يزال يبكي... يبكي بحرقة، يبكي بكاءً فجائعيًّا حادًّا... يبكي فقط يبكي... يبكي كأنَّه قرصته عقربٌ بأنيابٍ سامة، أو أن أمَّه تركته، أو أن الليل أبكاه، أو لأنه يبكي لأنه يريد أن يبكي... فقط كان يبكي.

واقتربتُ من الغرفة، كان البابُ مغلقًا، والشبابيكُ مغلقةً، والطفلُ في الداخل يبكي... فقط يبكي. أسمعُ صوته كأنَّه يريد الوصول إلى شيءٍ ولا يلحقه... كأنَّه يحبو نحو شيءٍ ما. لا أدري هل كان بابُ الغرفة مغلقًا أو مفتوحًا، لأن الظلام أخفى رسمَ الباب، فلا أراه، لكني أرى الظلمةَ الداجنة في مكان الباب. اقتربتُ أكثر فأكثر، كأن الباب مفتوحٌ أو مخلوعٌ، أو لعل الباب لا يراني فيمنعني من الدخول. فدخلتُ.

في الداخل الليلُ أحلك، والظلامُ أعتى، والعتمةُ أشدّ، لا أرى، فقط أسمع صراخ الطفل. إنَّه هناك، نعم هناك، لكن في هذا الظلام، حتى وإن أشرتُ نحوه، فلن أرى يدي، دعك من أن أراه هو، لكنه يبكي.

ها أنا أسير نحوه، وهو يتململ على شيءٍ ما... ربما أمَّه؟ ربما أختَه؟ ربما عفريتًا؟ أو وحشًا؟ قد يكون أيَّ شيءٍ في هذا الظلام... من يدري؟

لكنه يتمرغ ويتململ ويبكي. أتجه نحوه بخطوةٍ حثيثةٍ، حذرة، أخشى أن أطأ رأسه وأنا لا أراه، أخشى أن أعفص أصابعه الصغيرة البريئة الناعمة، فأتحمّل ذنب قسوتي وبشاعة فعلتي، لذلك تحرَّزتُ وأنا أمشي...

ها هو صوته تحت قدميَّ مباشرةً. إن سرتُ نحوه أكثر فلا مفرَّ من أن أطأه، وإن عدتُ برجليَّ إلى الخلف فسأعفِص أصابعه التي ربما أدخلها بينهما. وفجأةً سمعتُ صوتَ خشخشةٍ، لا أشكُّ أن عودَ ثقابٍ يُكرش ، فأضاء الغرفة نورًا أحمرَ خافتًا، ثم بدأ يزداد في التوهجُّ، كأن هذا الضوء الذي أشعله هذا الشخص—أو هذا الوحش أو العفريت،

كفكرةٍ خطرت في ذهنٍ متحيِّر—أضاءت في ذلك الظلام مثل فوهة بئرٍ مغلقةٍ مظلمة، أنتَ في داخلها ثم تُفتح الفوهة من أعلاك.

دخل النورُ في الظلام الدامس، مثل دخول الروح في الجسد، باغت الضوءُ الظلامَ وهجم عليه، مثل ثعلبٍ يهجم على فريسته بمكرٍ ودهاء.

ها هو شخصٌ يقابلني بظهره، فلا أرى وجهه، والطفلُ على الأرض بالقرب منه ممسكٌ بعباءته السوداء، كان الطفلُ يبكي وهو متعلقٌ بطرف عباءته ليحمله، ويتوسل إليه بالبكاء، لعل هذا الشخص الغامض الذي يرتدي هذه العباءة يحملُه.

كانت العباءةُ تغطِّي كلَّ جسده حتى رأسه، فبدا كأنه راهبٌ أو ساحرٌ، أو وحشٌ أو عفريتٌ... من يدري؟

ذهني امتلأ بالأسئلة كما يمتلئ كوبٌ بالماء، حتى إن العرق سال على جبيني وكلِّ جسدي، وشعرتُ بقليلٍ من الرعب، وأصبح هذا الرعب يزداد... ويزداد.

لكن الشخص الواقف أمامي لا يتحرَّك، وعودُ الثقاب—أو أيًّا كان ما يحمله—فهو يضيء ويخفت ويعتم، ثم يعود متوهِّجًا بصورةٍ أشدَّ مما كان، كأنه لا يزداد إلا في التوهجُّ...

والطفلُ أمامي هناك، أراه يبكي ويبكي، وكأن الشخص الواقف أمامي مع ضوئه العاكس لصورته مثل ذكرى في ذهنٍ شارد، أو طيفٍ في خيال، أو أسطورةٍ أتت من العصور القديمة.

الضوء يتموَّج، والصورة تتموَّج، والطفل يبكي، والشخص واقف، وقلبي تزداد دقاته وضرباته، والظلام يحيط بنا، والضوء يفضحنا...

ولكنني تشجَّعت، فتقدَّمتُ نحوه بخطىً خائفةٍ مترقِّبةٍ ما سيحدث، وحاولتُ أن أتكلم، أن أحرك لساني، أن أسأله: ما أنت؟ أو من أنت؟ أو ماذا تكون؟ هل أنت بشرٌ أم جنيٌّ؟ هل أنت خيالٌ أم حقيقة؟ هل أنت خطيرٌ أم مسالم؟ هل أنت شرٌّ أم خير؟ لماذا لا تحمل الطفل فتسكته من بكائه المؤلم المفجع الحار هذا؟ لماذا أنت في هذه الغرفة المهجورة؟ ولماذا كان البابُ مفتوحًا وقد أُغلق منذ سنين؟ كنتُ أريد أن أقول كلَّ ذلك مرةً واحدة، أن أسأله كلَّ تلك الأسئلة دفعةً واحدة، لكن لساني خذلني، وجسمي خانني؛ لقد شُلَّت أعضائي، ورخُت أطرافي، فلا أستطيع التحدُّث أو الكلام أو حتى أن أطرح سؤالًا، فظللتُ متشنِّجًا كأنني صنمٌ أو تمثالٌ لا يتحرَّك أبدًا.

مرَّت ثوانٍ كانت أثقل من وطأة هذا الضوء المتلاعب على مجمع الظلام الكثيف الذي ولَّى هاربًا، كانت ثوانٍ مليئةً

بالأسئلة، بمشاعر الفضول، بالرهبة، بالصورة الأسطورية الواقفة أمامي، وكانت كذلك مليئةً ببكاء الطفل المرير...
وبعد هنيهةٍ، قطع ذلك الصمت صوتُ الشخص الواقف أمامي، قائلًا:
"الحمدُ لله على سلامتك، فقد أتيتَ متأخرًا."

لم أستطع الهروب سابقًا، فقد حاولتُ ذلك لكي أنجو، وكذلك لم أستطع الآن حين سمعتُ صوته؛ كان صوتُ فتاةٍ، أو ربما امرأة... لا أدري، ولكنه كان صوتَ أنثى، كان صوتًا مملوءًا بالحزن، أو ربما قالت ذلك وهي تبكي.
لكنني على أيِّ حالٍ وقفتُ متجمِّدًا تمامًا، كما أنا: لا أتحرَّك، لا أتكلم، لا أتنفَّس، وربما حتى لا أسمع.
لكنني سمعتُ صوتها؛ كان صوتَ أنثى... ربما تبكي، أو ربما هي حزينة.

أحاول تحريك لساني بكلِّ ما أستطيع من قوَّة، لكنه لا يتحرَّك؛ هل مات لساني؟ هل قُطع؟ ربما لا يكون لديَّ لسان! دعني ألمسه لأرى هل هو موجودٌ أم لا. أحاول تحريك يدي فلا أستطيع تحريكها؛ هل ماتت يدي؟ هل بُترت ذراعي؟ هل أنا طيفٌ لا يتحرَّك ولا يتنفَّس ولا يستطيع أن يفعل شيئًا؟

أحرِّك شفتَيَّ فلا تتحرَّكان، حرَّكتُ كلَّ جزءٍ من جسمي فلم يتحرَّك؛ ربما أنا ميت... لكنني أرى الفتاة، والطفل يبكي؛ ربما أنا مشلول، لكنني أرى... فقط أرى...

التفتت المرأةُ الغريبة، صاحبة العباءة السوداء المسدلة على رأسها وجسمها، كأنها ساحرة. الفانوسُ الذي كانت تمسكه في يدها كشف لي حقيقة وجهها؛ كانت...

هي ليست وحشًا كما تظن، هي بريئةٌ مقارنةً بذلك الرعب الذي أدخلته في قلبي. قد أكون رعديدًا وجبانًا،

لكنني حين رأيتها أدهشتني أكثر مما أرعبتني، أصابتني الدهشة حتى فغرتُ فاهي كالأبله الأحمق، وصعدت شهقةٌ من رئتيَّ استقبلها فمي المشلول.

ربما تكون جِنِّيَّة؟ أو قد تكون ساحرة؟ أو ربما ملاك؟ قد تكون ملاكًا... لا أدري.

ثم أردفت قائلة، بعد أن التفتت نحوي والتقت عيناها بقلبي:

"لقد انتظرتُك طويلًا، كنتُ أفعل كلَّ الأشياء حتى ألتقي بك، وأحدثك عمّا أنا فيه."

ثم تلعثمت في كلامها، وتمتمت قليلًا، ثم قالت:

"أنا أعلم أنك ستفهم، نعم ستفهم."

كلُّنا سنفهم أنني مخطئ، وأنه ما كان ينبغي لي أن آتي إلى هذه الغرفة المهجورة.

كلُّنا سنفهم أننا لا نفهم، حتى وإن حاولنا الفهم، وأنني مهما حاولتُ التحدث فلن أستطيع، فأنا المشلول المتشنِّج. كلُّنا سنفهم أن ما يكون فسيكون، وما لم يكن فلن يكون.

أنا متجمِّد لا أتحرَّك، ولكنها تأتي نحوي، تقترب مني؛ إنها هنا، أمامي مباشرة. التقت عيناها بقلبي، وعيناي لا أدري ألتقتا بقلبها أم بعينها فقط.

المشاعر لا تُوصَف، فقط هي مشاعر. والطفل لا يزال يبكي، والضوء يدافع عنا بدرعه الأحمر، ويحمي حِمَانا، ولكن الظلام في عينيها وفي مقلتيها، والبياض في وجهها وفي فانوسها، والاحمرار في وجنتيها وفي لسان النار الملتهب في الفانوس... المشاعر لا تُوصَف، فقط هي مشاعر، والطفل لا يزال يبكي.

اقتربت أكثر فأكثر، هل تريد أن تعانقني، أم لعلها تريد تقبيلِي؟ إنها هنا أمامي مباشرة. هي لا تتكلم، وكذلك أنا لا أتكلم، ولا أقوى على الحراك، والطفل لا يزال يبكي.
فقالت لي، بعد أن مسحت بعض الدموع من عينيها وعركتهما، وأضفت ابتسامةً خافتةً على ثغرها:
"إنني في أشدِّ ما أكون إليك، إنني محتاجةٌ إليك، إنني راغبةٌ فيك، إنني متيَّمةٌ في عشقك، لا أستطيع العيش بدونك، ولا أستطيع البقاء إلا وأنت معي."

سأصدقك القول: في كلامها غنجٌ ودلعٌ مريع، وكان صوتها ناعسًا، وليس حزينًا كما زعمتُ أنا. كان صوتها مثل عينيها السوداوين، ترمي الكلمات كأنها سهامٌ فتُصيب قلبي. لم يقوَ جسدي على الحراك، فتجمَّد، وأظن كذلك أن قلبي سيموت مشلولًا مضرجًا في دمائه من صوتها وعينيها...

ذهبت إلى الطفل فأخذته ورفعته إلى صدرها، ثم أتت إليَّ وأنا واقفٌ مثل الخشبة: لا حركة، لا نفس، ولا رمشة عين...

فقالت لي وهي تأخذني من يدي:

"دعنا نذهب من هنا سريعًا، عالمكم فظيع، فقط ظلام... ظلام في كل اتجاه."

جَرَّتني من يدي، ودفعَتني معها إلى إحدى الغرف، ليس لي لا قوةٌ ولا حولٌ فأدفع عنها أخذها لي؛ الإرادة موجودة، لكنني لا أملك جسدي، روحي موجودة، لكن جسدي ميت. أنا أشعر بذاتي، أشعر بنفسي، وحتى إنني أرى... لكنني أقسم لك أن هذا الجسد ليس جسدي. فكيف يكون جسدي وأنا لا أتحكَّم فيه؟ أين ذهب جسدي؟ أين ذهبت قوتي وحولي؟ هل أنا ميت أم حي؟

لكن الفتاة لا تزال تجرُّني معها، وهي حاملة الطفل الذي كان قد صمت وسكت عن البكاء، ولم يبقَ إلا صوتُ أقدامنا ونحن نسير إلى الغرفة المجاورة للدهليز الذي كنا فيه. فدفعت الفتاة الباب، فدخلت في الظلام، ولم يعد لها وجودٌ إلا يدُها الممسكة بي، فجَرَّتني معها إلى داخل الغرفة، فخرجنا إلى عالمٍ آخر...

سجين

سأصدقك القول مرةً أخرى...
منذ أن سمعتُ صراخَ الطفل لم تتوقَّف الأسئلة عن الانفجار في ذهني، لكنها الآن ازدادت بصورةٍ مرعبة تكاد تُفجِّر رأسي معها.

صرنا في عالمٍ آخر... ومكانٍ آخر... وزمانٍ آخر.

هنا الشمسُ ساطعةٌ في كبد السماء، واليومُ نهارٌ واضحٌ لا يخفى على العين شيء.

إذًا، أين الظلام؟
هنا نحن في طريقٍ واسع، على حافتيه منازلُ ممتدَّةٌ إلى ما لا نهاية.
إذًا، أين الغرفة التي كنَّا فيها؟

كانوا هناك، في مكاني الذي لا أعلم أين هو الآن، يدعونني بـ"المجنون" على سبيل الهظار والفكاهة، لكنهم ربما يكونون صادقين، ولم يكن ما أدَّعوه إفكًا وكذبًا.

الفتاة ممسكةٌ بيدي، والطفل في صدرها ساكت؛ كلُّ شيءٍ صامتٌ، ساكنٌ، هادئ، إلا الأفكار التي تعتمل في دماغي الصغير هذا.
أين أنا؟
أين هذا المكان؟

أين هذا العالم؟

هناك... هناك في نهاية الطريق الواقفون عليه؛ إن كنتَ ترى، فإنها دودةٌ سابحةٌ في الهواء، وعليها... ربما يكون فارسًا، من خوذته التي يلبسها ودرعه الذي يرتديه، أو ربما يكون شبحًا من شكله الغريب هذا، أو ربما خيالًا، أو ربما وهمًا يراودني... بسبب خلوِّ الطريق وبعدِ غوره الملاصق لخط الأفق.

لساني لا ينطلق فيُعبِّر عن هذه المهزلة التي أراها؛ الفيزياء فقدت منطقها، والجغرافيا تلبَّست عليها معالم الأرض، والتاريخ نكص على عقبيه فتبرَّأ من عالمي ليرجع إلى هذا العالم الأسطوري... ربما أكون مقيَّدًا في إحدى غرف منزلنا بسلاسل وأغلال، لأنني فقدت عقلي

وجننت، كُشِف الغطاء، فبصرك اليوم حديد، وما صاحبك بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين.

أخيرًا تحرَّرتُ من شللي، وفُكَّت قيودي، وانزاح تصلُّبي وتشنُّجي، فعركتُ عينيَّ بيدي، لعلِّي أستيقظ، لعلِّي أصحو من هذه المهزلة... لكنها ما زالت تمسك بيدي، والطفل محمولٌ على صدرها.

جبالٌ ذات ألوانٍ مختلفة، ضخمةٌ وعالية، تحيط بهذه المدينة الضخمة، والمنازلُ عاليةٌ مثل الجبال، ونحن على الطريق الواسع ننظر إلى تلك الدودة السابحة.

يخرج كائنٌ غريبٌ من إحدى الأزقة المفتوحة على هذا الطريق: رأسُه رأسُ فرسٍ، له عُرفٌ مثل عرف

الديك، ليس شعرًا بل لحمةٌ حمراء، وبطنُه بطنُ ثعبانٍ رقطاء، وله رجلان تحت العنق مباشرة، ويجرُّ ذيلًا قدره ثلاثةُ أذرعٍ خلفه ، يعلوه رجلٌ—أو شبهُ رجل—وجهُه مثل رئة بقرةٍ ماتت كمدًا، وشعرُه ضفيرتان مسدلتان إلى الخلف، يلبس درعًا من الحديد، منطلقًا بهذا الفرس المجهول، فيلتقي بصاحب الدودة السابحة، فيختفي هذا، ويخرج صاحب الكائن الغريب بكامل هيئته...

الجنونُ نعمةٌ إن كان يُقصد به فقدانُ العقل، لكن إن كان ذهابُ العقل إلى عالمٍ آخر، فهو نقمة.

المنازلُ ضخمةٌ، عاليةٌ، من خشبٍ أو حديدٍ مطليٍّ باللون الخشبيّ الأصفر الباهت، لكنها شاهقة؛ أنا وهي والطفل نملةٌ في عالم البشر مقارنةً بهذه البنايات العالية الضخمة.

الطرقاتُ والأزقةُ فيها مثل دهاليز القصر، مُخطَّطةٌ، مرسومةٌ بعناية، هادئة، عالية...

لم أرَ سوى صاحبِ الدودة السابحة، وصاحبِ الكائن الغريب، والطريق ممتدًّا أمامنا إلى ما لا نهاية؛ فقط بناياتٌ وأزقة، وأنا والفتاة في منتصف الطريق. فقطعت الصمت قائلةً:

"أنا أعلم أن لديك كثيرًا من الأسئلة، لكن ليس هذا بوقت كلام..."

سمعتُ صوتها مثل جنديٍّ في معركةٍ انفجرت تحت قدميه قنبلةٌ صوتيةٌ مدوِّية فنجا، وبعد ثوانٍ من الانفجار تحدَّث إليه صاحبُه الذي بجواره. كان صوتُها يأتي من بعيد، مثل سرابٍ لقريةٍ في خط الأفق، تراه العين يتموَّج؛ كان بعيدًا

جدًّا، وكنتُ كمستمعٍ تحت الماء. الدهشةُ التي امتلكتني وأغرقتني انتشلني منها صوتُها، فأردفت قائلةً:
"لذلك دعنا نذهب إلى المنزل، قبل أن يرانا حرسُ المدينة."

فأخذت بنا إلى الزقاق القريب منا، كانت تُسرع بنا وهي تمسك بيدي التي لم تتركها أبدًا، وهي حاملةٌ ذلك الطفل على صدرها. كنتُ مشدوهًا، فاغرًا فاهي كالأبله، عيناي لا تثبتان على منظرٍ واحد.
الزقاقُ ضيّقٌ نوعًا ما، جدرانُ المنازل عالية، صورٌ هيروغليفيةٌ على الجدران، رسومٌ متباينة، ألوانٌ مختلفة، النوافذُ في بعض المنازل عالية، وكُوَّاتها ذاتُ فتحاتٍ صغيرة، الأرضُ كدُود ومساطبَ مقسَّمةٍ بعناية.
الزقاقُ خالٍ إلا منا، تستهويني الرسومُ فأنظر، ويسحرني علوُّ النوافذ فأفكِّر. البلاطاتُ على الأرض في هذا الزقاق

وُضعت بعنايةٍ فائقة، فكنا نسير عليها مسرعين. عبرنا بالزقاق الأول، فالثاني، فالثالث، فإذا نحن أمام بابٍ خشبيٍّ، رسومُه وأشكالُه محفورةٌ بعنايةٍ فائقةٍ ومُدهونةٌ بطلاءٍ بنيٍّ زيتي.

فُتح البابُ وكأنه يرانا حين قدمنا، ففُتح من تلقاء نفسه. فدخلنا. كان المنزلُ من البنايات المنخفضة الارتفاع، ومقسَّمًا إلى خمسة طوابق، وفناءُ الحوش واسع، توجد في وسطه فسقيةٌ كبيرةٌ عليها نافورة، يتدفَّق الماءُ فيها بكل نشاطٍ وهمَّة، وعلى حوافِّ الجدران تنتشرُ أصصُ الزهور المتنوِّعة.

فأدخلتني في غرفةٍ كانت بمحاذاة الباب، فدفعتني إلى داخلها، وأغلقت دوني الباب...

* * *

أسرعتُ في الإمساك بمقبض الباب، ولكن دون جدوى؛ كانت قد أغلقت الباب دوني بإحكام. حاولتُ إدارة المقبض، وفعلتُ ذلك عدة مرات، أحاول ولكن دون جدوى، فلم أجد حيلةً سوى الاستسلام. أحيانًا، بعض الأبواب التي تُغلق خلفنا يصعب أن تُفتح مجددًا. التفتُّ خلفي لكي أرى أين أنا، وما هذه الغرفة التي حُبستُ فيها؛ كانت غرفةً مطليةً باللون الأزرق، واسعةً، عاليةَ الجدران، سقفُها شاهق. وبالقرب مني، مما يحاذي الباب، مزهريةٌ فيها نبتةٌ ذات لونٍ أحمر، وبالقرب من المزهرية سريرٌ ذو وسادةٍ ليفية.

وهناك، في الجهة المقابلة، درجٌ عالٍ ذو صناديقَ عديدة. ومما لفت انتباهي مجموعةٌ من اللوحات المعلَّقة على الحائط في الجهة المقابلة للباب.

كانت إحداهن صورةً عبارة عن... كأنها رُسمت بواسطة فنانٍ حاذق، كانوا مجموعةً من الجنود يركبون مخلوقاتٍ غريبة، وكأنهم في خضمِّ قتالٍ وعراكٍ مع كائناتٍ من وحي الخيال، مخيفةِ الشكل والهيئة. وكانت الدماء تسيل تحت أقدامهم كأنها سيلٌ عرم، رماحُهم متشابكة، وسيوفُهم متلاقية، كانت صورةً أقربَ ما تكون إلى الخيال... صورةً رُسمت في عقل الزمان الغابر، كأن الجنَّ تتقاتل فيما بينها حين كانوا يسكنون الأرض.

الصورة الثانية كانت لبُراقٍ، أو حصانٍ من أحصنة سليمان المجنَّحة، ذو جناحين من ريشٍ أبيض مثل لون جسده، لكن وجهه مثل وجه ابن آوى، وأنظر إلى رجليه، إنهما مثل أرجل الإبل؛ إنها صورةٌ غريبةٌ بحق كما ترى. ربما تكون مستوحاةً من فيلمٍ خيالي، أو من عالمٍ غريب، لكن من رسمها فقد أتقن رسمها.

والصورة الأخرى لرجلٍ، أو شبحٍ، أو جنيٍّ، لا أدري؛ ولكنها ربما تكون صورةَ ملكٍ أو إلهٍ من آلهة الإغريق القدماء. كان رجلًا يجلس على كرسيٍّ أو سريرٍ على الماء، كل ما يحيط به ماء، فقط ماء، وكأن عرشَه على الماء.

يخرج من خلف الكرسي رؤوسُ ثعابين؛ إنه لأمرٌ مخيف، ولكنني أراه أمامي، الثعابينُ تتلوَّى، وتريد الخروج

من الكرسي، ولكنها جزءٌ منه. كان الجالس عليه... دعني أقترب أكثر حتى أراه جيدًا.

فُرِشت أرض الغرفة بسجادة أظنها من الحرير ، أقتربت نحو الصورة ، كانت أرعب ما رأيت في حياتي ، أنه الشر بعينه ، أنه الهلاك من عينيه المحمرتين كأنهما جمرتان ، بارزتان من محجريهما ، وما حول عينيه من ما يحيط بأهدابها أسود ، كأنهما الليل المدلهم ، عديم الحواجب ، والأنف طويلة معكوفة كأنها سنارة ، والفم عديم الشفايف لا تظهر منه إلا نوائبه الأعلان كأنه سبع مفترس ، الوجه نحيف الحنك يدل على دهاء ونجابة ، وجبينه أجعد ، أذنيه مثل أذني ثعلب يريد أن ينقض على فريسة ، وشعره كثيف أسود فيه حمرة معمول في شكل ضفائر ومسدل الى قفاه ، وتنتهي أطراف ضفائره عند أكتافه ، في روؤس حيات ،

هائجة ، تتطائر الشرر من أعينها ، وهناك قرنان من معدن أو حجر كريم أحمر كأنها قرنا ثور نطيح .

هابني ما رأيت من غريب الصور ، فالناس في العادة تضع صورة رياض او بستان او زهور ، ويضع بعضهم لوحات المانولزيا ونابليون ولويس الخامس ، لكن أن تضع صور من الخيال أو غرائب المخلوقات ، فهذا من العجب العجاب ، حدثت نفسي بأن أرى الدرج ذو الصناديق العديدة ،.وأنظر ما فيه ، لعلي أعثر على كنز أو مصباح سحري او صولجان مشعوذ ، او لعلي أجد مفتاح يخلصني من هذه الغرفة البغيضة التي حبستني فيها هذه الفتاة ...

لم أكن خائفاً ، بل قد أنشرح صدري لما أنا فيه من عظيم الحلم ، أو الجنون ، أو اي شئ أصابني ، نعم كنت في الاول مشلول ومتشنج ، ولكن أحياناً غرائب مثل هذه تذيل الرعب والخوف وقد يقتل الغريب من الاشياء القلب ، فلا يشعر بأي شئ ، فقط يشعر بالفضول ، وانا أنسان فضولي .

فتحت احد الصناديق ، كان فارغاً . فأغلقته ، فتحت صندوق آخر ، في داخله ، محبرة ، واقلام ومجموعة كبيرة من الأوارق ، فأغلقته ، فتحت الآخر كان فيه مجموعة من الخرائط ، أراض غريبة ، تضاريس أغرب ، جبال وسهول ، هضاب ومرتفعات ، أنهار وبحور ، وأسفل هذه الخرائط المرسومة بخط اليد صورة للملك المعلق في الحائط ، لكنها كانت لوجهه فقط ، كان في هذه الصورة أرعب من تلك التي على الجدار . فأغلقت الصندوق ،

وفتحت الصندوق الآخر ، كانت هناك سبع جواهر ، الواحدة منهن في مثل بيضة النعامة ، وكل واحدة بلون من الوان الطيف السبعة .

شعرت بالتعب ، وأصبح النعاس يراودني ، فلو كنت هناك من حيث أتيت لكنت قد نمت في مثل هذا الوقت ، ولكن هنا صار ليلي نهاراً ، النعاس يغالبني ، والسرير بالقرب مني يغري بالنوم ، خشيت أن أسقط من النعاس ، فدلفت في السرير ، لم تهدأ الأسئلة بعد . . . . الغرفة المهجورة ، بكاء الطفل ، الفتاة التي أخذتني من يدي وقادتني الى هذا المكان ، الاحلام ، النعاس ، اللوحات المعلقة على الجدران ، الصناديق ، الخرائط ، المدينة الخالية ، الثواني الثقيلة ، شعور يروادني ، يريد ان يسرقني الى عالمه ، كما سرقتني الفتاة ، أين أنا ؟ أين تذهب

أرواحنا حين ننوم ؟ لماذا النوم عالم غامض ؟ . كانت الافكار تتدفق . . فقط تتدفق .

سمعت فحيح حية ، شعرت وكان ثعباناً هنا في هذه المزهرية ، رابض مثل ربوض الأسد ، شعور النعاس مؤلم ، ثقيل ، لكنني أعدت عليه ، ألتفت نحو المزهرية ، لعل النبتة في الأص تكون قد أصبحت أفعى تريد أكلي او لدغي أو حتى بلعي . . . هناك مجموعة من الازهار والورود في هذه النبتة ، مختلفة الالوان ، ركزت عيني في أكبر زهرة . . . . فنهضت من السرير مسرعاً ، هلعاً ، هرب النعاس وفر سلطان النوم ، أدركت حينها انني رأيت رأس حية ، تتلاعب بلسانها في باطن الزهرة ، ما هذا ! . . . هل تحولت الزهور الى ثعابين ام انني أحلم ؟ . . . ولكنني واقف على قدماي ، ولست نائماً ، فأعدت الكرة حتى أرى

، إن كنت ، ما زعمته صحيحاً ، نعم هناك رأس حية ، إزدادت غضباً حين رأتني أنظر إليها ، فأصبحت توّز أزيزاً ، وتفحُّ فحيحا ، كأنها تريد أن تقلع الزهرة من المزهرية ، وتخرج جذور النبتة من ترابها ، كانت تشير برأسها نحوي ، كأنها تريدني .

أخافتني فقد كانت غاضبة جداً ، وإنها امامي تزداد شراسة وعنفاً ، فأتجهت نحو الباب ووقعت فيه قرعاً وضرباً وأنا أصرخ وأقول :

" أيتها اللعينة . . أيتها الفاجرة ، تعالى وأفتحي هذا الباب"

كانت الحية كأنها تصرخ لصراخي ، وتغضب لغضبي ، حاولت الوثوب من فوهة الزهرة ، لكنها لم تستطع ذلك ، كانت وكأنها جزء من النبتة ، كان لساني قد أنطلق من

تخشبه ، وتحررت من تجمدي ، وفك قيدي . كانت تلك اللعينة قد فعلت بي شيئاً ، لا أعلم ما هو ، ربما تكون سحرتني ؟ أو قالت تعويذة ما ؟ أو أخرصت لساني؟ . أو قتلته تماماً عندما كنا هناك ، ثم إذا أتيت الى هنا أعادت لي نطقه ، فكنت أصرخ به وانا أقول :

" أيتها اللعينة . . . العاهرة . . . القاتلة . . . الفاحشة . أفتحي هذا الباب وإلا . . . "

كنت أشتمها بأشد الالفاظ وأقذع العبارات ، وكان غضبي يقل كلما أزدت في شتمها وسبها ، لا أعلم ماذا تريد أن تفعل بي هذه الفاجرة ! . لا أعلم لماذا كنت أسير معها مثل الكلب ، كانت تمسك بيدي فتأخذني من باب تلك الغرفة المهجورة الى هذا العالم الذي ليله نهار ، ونهاره ليل !. هل تريد قتلي ؟ هل تريد بيعي مثل الغنيمة التي يجدها

المقاتل في الحرب ؟ هل هي جنية ؟ هل أنا في عالم الشياطين؟

هدأت الافعى من سعارها ، وهدأت من ثائرة غضبي ، كان كل شي حولي هادئي تماماً ، الغرفة تكاد تكون حاجزة للصوت الذي يأتي من الخارج ، أنا لا أسمع ، لا أسمع شئ خارج الغرفة أو داخلها ، أنا فقط أسمع أمواج الأسئلة المتلاطمة في ذهني ، لماذا أنا هنا ؟ ماذا يراد أن يفعل بي ؟ هل سوف أموت في هذه الغرفة وحيداً ، مشرداً ، دون إجابات ؟ هل إن واصلت القرع في الباب سوف يفتح لي ؟ . وخطرت في ذهني فكرة .

أمسكت بطني ووقعت على الارض ، وانا أتمرغ وأمسك ببطني وأقول :

" الحقوني . . .يا من بالخارج . . .النجدة . . ساعدوني . .
الفزع . . وابطناه . . وألماه . . لدغتني الحية . . .الحية
التي في الزهرة . . ... .الحقوني . . ارجوكم . . ارجوكم "

لكن دون جدوى ، كثيراً من الاشياء في هذه الحياءة استخدمت معها أسلوب الحيل والمكائد ، لكنني لم أروم ولا شيئاً واحداً ، وكذلك الحيلة لم تنجح في هذا المقام وبات بالفشل ، لكنني تمرغت في الارض ثانية ، لعلي أروى أسفي وحزني ، حظِ النحس ، لكن لم تَجُد عيناي ولا بدمعة واحدة ، الكون كله يتألب ضدي ، الفتاة اللعينة ، والغرفة المهجورة ، والعالم الغريب هذا ، حتى اللوحات المعلقة على الجدران والمثبتة على الحائط تقف وكأنها تسخر مني ، صور بشعة ، معركة ، كائن غريب.

لكنها كلها لن تنال مني ، إلا بمقدار ما أسمح لها ، الهواء في الغرفة رطب ، بارد ، كيف يدخل النور الى

هذه الغرفة المصمّتة ، لا توجد فيها نوافذ ، إلا فتحة الباب المغلق .

* * *

" حبيبي ... روحي .. ، هل أنت مستعد حتى أخبرك "

صوتها أتى من لا مكان ، وكأنه جاء من كل مكان ، أيقظتني من هودة الأفكار التي كانت تأكل رأسي ، شعرت بالوجود ، بعد ان كنت اسبح في بحار الأسئلة ، كان صوتها آت من خلف الباب ، قمت من رقدتي ، واتجهت نحو الباب ، ورميت نفسي عليه وانا أقول لها :

" أيتها اللعينة . . . الفاجرة ، افتحي هذا الباب وإلا . . "

" ماذا سوف تفعل ، وإلا ماذا ؟ ه "

أجابني صوتها من خلف الباب ، وكأن نوحاً ينادي ابنه الى السفينة ، يا بني اركب معنا ، لكنني آثرت الغرق في صوتها الناعس ، الخمر قد تذهب بالعقل ويصيب الإنسان نفحاً من نشوتها ، لكن صوتها كان يسكر دون ذهاب العقل ، نشوته أخرجتني من عصبيتي وغضبي الى برها وسلامها ، فخضعت وأنا أقول :

" لن افعل شئ " . . ثم أردفت. . " فقط أخرجني من هنا "

فقالت بصوت حازم :

" دعك من هذا البكاء ، وأسمع كلامي جيداً ، فإني لن أعيده عليك مرة ثانية "

فقلت وكلي مستسلماً لصوتها :

" حسناً "

فقالت :

" أسمي 'رحيق بنت شادوق' ، كان أبي محارب في جند عزازيل الأعظم وكان جندياً من جنود هذه المدينة ، ولدي أختان لا غيرهما ، وهما 'سحيق' و 'ندى' ، أما أمي فقد قتلت منذ عهد قديم ، ولدنا في هذه المدينة بين أبناء عشيرتنا وقبيلتنا وترعرعنا فيها ، فكان أبي يغزو في الجيش عاماً ، ويمكث في البيت معتزلاً عاماً ، فلما كان في إحدى أعوام الغزو ، قتل في المعركة زعيم
عشيرةٌ من قبيلةِ الأعداء، معروفٌ في المدينة المعادية لنا ببسالته وشجاعته وفروسيته. ورأى ابنُ الزعيم هذا مقتلَ أبيه، فلم يقرَّ له قرارٌ بعد مقتل أبيه، ولم يهنأ له مقامٌ حتى يقتل قاتلَ أبيه.

فعمل ابنُ الزعيم الحِيَلَ والمكائد، حتى أتى إلى مدينتنا، وأعلن انضمامَه إلى عسكر المدينة، حتى إنه قاتل معهم أبناءَ قبيلته، وأثخن فيهم القتلَ والحرق. فانطلت الخديعةُ على أهل مدينتنا، وظنُّوه قد أضمر لهم الولاء والإخلاص، وهو يطوي الخبثَ والغدر في صدره.

وكان الجنود يتسامرون فيما بينهم، ويتفاخرون بقتلاهم، حتى في يومٍ من الأيام ذكر أبي أنه قتل زعيمًا من القبيلة الأخرى. فلما سمع ابنُ الزعيم ذلك، عرف من قتل أبيه، فعمل الخطط ورسم التكتيكات حتى يأخذ بثأر أبيه.

فتقرَّب إلى أبي، وأصبح له من أعزِّ أصدقائه، حتى إن أبي أحبَّه وأخلص له، وأتى به إلى منزلنا هذا. فلما رآني ابنُ الزعيم، تقرَّب إليَّ، وأرسل إليَّ رسائلَ الحب والعشق، وأخذنا نتواعد ونلتقي، وأمَّلني في الزواج.

ولما كانت ليلةٌ من الليالي، استيقظت أختي الكبرى "سحيق"، فوجدت أبي مقتولًا، فأخذنا في الصراخ والعويل، فاجتمع أهلُ البلد من كل حدبٍ وصوب. وأرادوا البحث عن قاتله، فسألوا عن ابن الزعيم فلم يجدوه، فعرفوا أنه القاتل.

وكنتُ قد حملتُ منه، وأنجبتُ هذا الطفل الذي أحمله، واسمه "لام". والذي أكَّد زعمَ أهل المدينة أن قاتل أبي هو ابن الزعيم؛ أنهم ذهبوا إلى القتال فوجدوه مع صفوف الأعداء.

قلتُ لها:

"قد أكون مجنونًا أو مخبولًا... لكن أن أُحادث واحدةً من الجن تُدعى "رحيق" أو "سحيق" أو "نقيق"، فهذا ليس من الجنون في شيء، بل هو من الخرافات وأضغاث الأحلام."

فقالت:

"لقد سمعتُ ما قلت... وداعًا."

فذهبت إلى مثواها، وغابت في غياهب العدم كما حضرت، وظللتُ أنا ممسكًا بالباب، كأنني متعلِّقٌ بأستار الكعبة. تغزو الأفكارُ رأسي، وتهجم عليه الأسئلةُ اليتيمة من كل صوبٍ واتجاه، فأخذتُ أتمتم كالهذيان:

"رحيق بنت شادوق"... "أبوها محاربٌ في جند عزازيل الأعظم"... "قُتل أبوها، وحملت بالخديعة"... "أنجبت طفلًا بالحرام."

فصرختُ، وأنا أقرع الباب قرعًا أشدَّ وأعنف مما سبق:

"وما يعنيني أن أباكِ جنديٌّ أو زعيمٌ أو مقتولٌ أو قاتل؟! ما لي ولأبيكِ؟!"

وقد اشتطتُ غضبًا، واحمرَّ وجهي، وانتفخت أوداجي، وأنا أقول:

"ماذا أفعل؟ هل أقتلُ الذي قتل أباكِ؟ أم تريدين أن تجعليني بدلًا لأبيكِ؟! أو تريدين ذبحي وتقريبي للآلهة حتى تعفو عن أبيكِ القاتل؟! ماذا أفعل؟ أيتها الفاجرة... العاهرة... الخبيثة... تعالي وافتحي هذا الباب!"

كانت الحيَّة التي في الزهرة قد اشتدَّ غضبها، وعلا حفيفها أشدَّ مما يكون، فأصبحت تثبُ بصورةٍ مرعبة، حتى إنها أمالت النبتة كلَّها باتجاهي، وقد كانت الزهرة قبل ذلك متجهةً نحو السرير. فأخذت الحيَّة تتفلَّت، وكذلك أنا، وعلا صراخها وكذلك أنا... إلا أنه لا حياة لمن تنادي.

لم أجد عزائي إلا في التمرغ في أرض الغرفة، أتلوَّى بالحسرة، وأنطوي على الأسى، وأمسك بطني من الفجيعة. يا رب، ما الذي فعلته حتى أُجازى بهذا الحبس؟! أيُّ جرمٍ ارتكبته حتى أُعاقَب بهذا السجن؟! يا رب، لم هذا الذل بعد العز؟ ولم هذه العبودية بعد الحرية؟!

كنتُ هناك... حرًّا... سيدًا... عزيزًا... غير مقيَّدٍ ولا ذليلٍ ولا حقير، ولكن بين ليلةٍ وضحاها تغيَّر كلُّ شيء. وبينما أنا أجادل القدر، وأقاتل المكتوب، وأنكر الذي حصل، وأتذكر أيام الماضي وحلاوتها، وأتأمل قسوة الحاضر ومرارته، سمعتُ طرقاتٍ خفيفةً على الباب، ربما كانت بأطراف الأصابع. فإذا بها تقول:

"ربما تكون قد جُعت... هل تريد شيئًا من الطعام؟"

أريد أن آكلكِ أنتِ إن وجدتُ لذلك طريقة... أريد أن أشرب من بحار عينيكِ، وحدائق جفنيكِ، وروضات رموشكِ... أريد أن أطفئ نار ظمئي من ماء ودِّكِ، وشراب عطفكِ، وخمر عشقكِ... لكنكِ قاسيةٌ بطريقةٍ لا تُفهم، وجلَّادةٌ بشكلٍ لا يُعقل. سجنتِني عيناكِ حين رأيتكِ، وحبستِني في هذه الغرفة... فكيف لا أكون قد جعت؟

فقلتُ لها، وأنا أقوم من رقدتي مثل سجينٍ حُكم عليه بالسجن المؤبَّد، وقد يئس من الحياة، فاستسلم للضعف وخضع للموت، فإذا به قد أتاه السجَّان فأخبره أن قد بُرِّئت تهمته وانقضت مدته:

"نعم، أنا جائع... بل أكاد أموت جوعًا وعطشًا، فهلَّا جُدتِ عليَّ بالطعام وتصدَّقتِ عليَّ بالشراب؟"

قالت:

"لكن عِدني أن تكون طيِّعًا، مؤدبًا، ولا تتهوَّر بفعل شيءٍ قد تفقد بسببه حياتك."

قلت:

"أعدك أن أكون كما تحبين."

فُتح الباب.

وقفن قبالتي، ووقفتُ مقابلًا لهن: ثلاثُ فتيات، تتقدَّمهن "رحيق" بشحمها ولحمها، كما رأيتها أول مرة؛ ساحرةٌ بشكلٍ ما، وغامضةٌ بكل الطرق. حضورها الأنثوي طاغٍ على الفتاتين اللتين خلفها.

كانت تحمل صحنًا عليه أرزٌّ وقليلٌ من اللحم، وخلفها الفتاتان، إحداهما تمسك سوطًا، والأخرى تحمل هراوة، وكل واحدةٍ منهما قد اتخذت وقفةً استحقاريةً وعنجهية، لترهبا شخصيَ الضعيف.

لم أكن خائفًا، بل كنتُ مثارًا بشكلٍ غامض، وجائعًا بشكلٍ مجهول...

قالت وهي تتقدَّم نحوي:

"تفضَّل، هذا قليلٌ من الأرز واللحم... ولو كنت تفضِّل شيئًا آخر..."

قاطعتُها قائلًا:

"لكنني لستُ جائعًا لهذا، بل جائعٌ للحقيقة، وعطشانٌ للمعرفة."

عندما قلتُ ذلك، رأيتُ الفتاتين اللتين خلفها تستعدان، وتلوِّحان؛ هذه بالسوط، وهذه بالهراوة، يترصَّدان فقط لو أخطو خطوةً واحدةً نحوها، حتى ينهالا عليَّ بالضرب والجلد.

قالت:

"ماذا تريد أن تعرف؟"

قلت:

"ماذا أريد أن أعرف؟... أريد أن أعرف كلَّ شيء؛ لماذا أنا هنا، وماذا تريدين مني أيتها..."

لكنني أمسكتُ عن الكلام خوفًا على نفسي من الهلاك، ثم قلت:

"ما الذي تريدينه مني؟ ما الذي دفعكِ إلى أخذي؟"

أعطت الصحنَ إلى الفتاة صاحبة الهراوة، وكانت الأكبر، فأقبلت نحوي خطوة، ثم قالت:

"سأصدقك القول يا حبيبي، وعشيقي، وروحي... أنا فتاةٌ من الجن، ضعيفة، مسكينة، يتيمة؛ ليس لي أبٌ يحميني، ولا زوجٌ يؤويني، ولا قلبٌ يحتويني. ضائعةٌ في الظلام، وتائهةٌ عن ركنٍ يضمني."

فقلتُ لها وقد اتسعت حدقتا عيني:

"وما الذي يُدخلني في هذه الفوضى، ويُقحمني في هذا الصراع الذي تعيشينه؟"

قالت:

"عرفتُ طيبة قلبك، وكريم أصلك، وشهامة نفسك، وجمال طبعك، وحُسن خلقك، وزكاء روحك، و..."

فقاطعتُها، وأنا أُظهر الضجر والغضب، لكنني لا أجرؤ على فعل شيء خوفًا من الفتاتين اللتين خلفها:

"ومن أين لكِ أن تعرفي ذلك، وأنا من عالمٍ وأنتِ من عالم، وأنا من دنيا... وأنتِ لا أدري في أي خرابة؟"

فقالت:

"اسمع يا هذا، أنا محبَّةٌ لك، وعاشقةٌ لك، ومتيمةٌ في حبك، ولكنك لا تسمع لا بقلبك، ولا بعقلك، ولا بأذنيك. فقد أظهرتُ لك ذلك ألف مرة، ولكنك لا تنوء بشيء، وربما لا تفهم حتى. قلتُ لك إنني أحبك صراحة، وقلتُها لك تلميحًا، لكنك صلفٌ قاسٍ، أغلفُ القلب، وفي أذنيك وقر."

رأيتُ دمعتين تنحدران من مقلتيها...

لم أكن أعلم أن الجن قد يكون لهم قلوب مثل قلوبنا، وعاطفة مثل عاطفتنا، بل أشد... ربما يكونون رقيقي

المشاعر، رهيفي الإحساس، لا قسوة فيهم. ربما نحن القساة، الأجلاف.

طأطأت الفتاتان رأسيهما، هل أرادتا أن تشاركاها شعورها بالحزن؟ هل كانت صادقة فيما تقول؟ هل هي تحبني فعلًا؟ لا أعلم...

فقلتُ، وقد طأطأتُ رأسي أنا أيضًا، وبدَّلتُ مشاعري خجلًا وحياءً:

"لم أعلم... أنكِ... لكن الآن فهمت. لكن لماذا؟ لماذا أنا؟ هل يعني أنكِ... لا بد أنني أسأت الفهم. حسنًا، سأكون صادقًا..."

أصبحتُ أخفض صوتي قليلًا قليلًا، كأنني أُحادث نفسي، فقاطعتني قائلة:

"حسنًا الآن، أخبرتك كلَّ شيء."

رفعتُ رأسي نحوها وقلت:

"نعم، أخبرتِني... لكنكِ لم تخبريني كلَّ شيء، أقصد: كلَّ شيء."

قالت:

"سأخبرك بعد أن تنتهي المعركة."

قلت:

"أيُّ معركة؟"

قالت:

"ستدور بعد قليل معركةٌ عنيفة، ولكن لن يصيبك شيء، وكذلك لن يصيبنا شيء. ستظل في هذه الغرفة حتى تنتهي الهجمات، وسآتي إليك حينها وأخبرك كلَّ شيء."

ثم ذهبت، وأغلقت خلفها الباب.

فاتجهتُ نحو السرير أطلب الراحة، فإذا بالحيَّة تصرخ كما كانت، فقد كانت ساكنةً هادئةً حين كانت هنا.

فجررتُ نفسي نحو الباب، وأنا أقرعه بقوة، وأقول:
"والحيَّة التي في المزهرية، ماذا أفعل بها؟ لم تخبريني عنها شيئًا!"
لكنني لم أجد إجابة، سوى صدى قرع الباب، وحفيف الحيَّة الذي أخذ يزداد ويزداد.
رحلت... كأنها لم تكن.
ذهبت بعواطف الحب، وتركتني تحدوني الحيَّة، ويعزّيني الصمت.
لم يبقَ من أثرها إلا رائحتها العبقة...
وهل في طلل الروائح من مواساة؟ أم أنه طيفٌ يبقى ليشاكس أنوف العاشقين، فقط ليجعلهم يزدادون حزنًا ودهشة؟

كان رحيلها ثقيلًا، وكانت عيناها تخبرانني بحبها، لكنني كنت أحمق لا يفهم إلا الصريح الواضح، وهي قد تكفلت بذلك، وأخبرتني بحبها.

كانت صادقة... فالدموع لا تنزل مكرًا ولا خديعة.

أخبرتني أنني سأفهم كلَّ شيء، وحقًّا قالت...

فأنا بالفعل بدأت أفهم.

أنا في عالم الجن، دون شك.

لكن... هل هذا حلم؟ أم حقيقة؟

هل هو وهم؟ أم خيال؟ أم واقع؟

هل أنا داخله فعلًا؟ وكيف دخلت إليه؟ وأين هو؟

هل بوابته عند تلك الغرفة المهجورة؟

هل هو في الأرض معنا، أم في أرضٍ أخرى؟

كانت الأفكار تأخذني إلى كل ناحية، شرقت وغربت، فلم أترك سؤالًا إلا نبشته، ولا شكًّا إلا عبرته، ولا شعورًا إلا أحسسته...

ولكن دون جدوى. وبدون فائدة

عزازيل

لم أَصْحُ من شرودي طواعيةً، لكن صوتَ الضربات العنيفة في الخارج فعلت ذلك.

أزيزُ المدافع ربما... شخيرُ الدبابات ربما... زفيرُ الجحيم ربما... نفخٌ في الصور ربما... صرخةُ الهلاك ربما...ماجت الأرض ربما...ربما يكون أيَّ شيء. أنَّى لي أن أعلم ذلك، وأنا محبوسٌ في هذه الغرفة ذاتِ الثلاثِ لوحات، والدرجِ ذي الصناديق، والمزهريةِ ذات الحيَّة، والسريرِ ذي الوسادة.

لو أنني كنتُ في الخارج، أو لو أن الباب مفتوح، لخرجتُ ورأيتُ ما يحدث. لكن، أيًّا يكن، فإنه هلاكٌ ودمار.

ربما المدينة كلها سقطت على رأسها منهارة، ربما لم يبقَ شيءٌ في الخارج قائم، ربما لم يعد هناك شيءٌ واقفٌ عدا هذه الغرفة ذات الجدران العالية والسقف الشاهق.

كلُّ الاتجاهات سُوِّيَت بالأرض حد الأفق، فقط الفراغ والعدم يحيطان بهذه الغرفة.

كلُّ الاحتمالات أخذت ترقص في ذهني، تبرز إحداها لتعلن عن ذاتها، محاولةً إثبات وجودها، لكن الضربات في الخارج تهز الأرض تحتي، فينسحب هذا الاحتمال ليحلَّ مكانه احتمالٌ آخر.

يقول الاحتمال الجديد: ما يحدث لي خللٌ ذهني أو اضطرابٌ عقلي... ربما بداية الجنون تكون هكذا، يشعر الإنسان حوله بالانهيار... انهيارٌ في كل شيء، العالم يتداعى، الدول تتساقط، الحروب تنشب، الناس تموج وتموج.

ما يحدث ربما يكون حقيقةً لا مراء فيها.

هي أخبرتني قبل خروجها بأنها ستدور معركةٌ عنيفة...
لكن ليس بهذا العنف الذي أراه.
لقد كانت أصوات الصرخات والنَّترات كأنها تخرج من سويداء القلب، وكأن الضربات تمزِّق نياط الفؤاد.
لعلها القيامة قد قامت... لعلها النفخة التي تفجع أهل السماء والأرض.
لكن... أين السماء؟
وأين الأرض؟
أنا في مكانٍ ربما يكون خارج حدود الزمان والمكان.
لعلي في العدم، أو الفراغ... أو قد لا أكون موجودًا أصلًا.

كانت الحيَّة قد هدأت من ثائرتها، وأوقفت صراخها وعياطها، وخمدت كما تخمد النار بالماء.

لعلها خائفةٌ مثلي مما يحدث، فأرادت أن تتوارى داخل الزهرة، كما يتوارى الجبان إذا حمي الوطيس.

نشلني من هوّة الأفكار التي فيها، ونبَّهني من موجات الاحتمالات التي كادت أن تُغرقني، صوتُ صرير الباب وهو يُفتح.

فإذا بهنَّ الثلاث قد هَجَمن عليَّ.

سألتني "رحيق":

"كيف أجدك في هذه الضربات، والهجمات المتبادلة؟"

كانت كأنها في سباقٍ محموم، تتنهد مثل لبوةٍ في عرينها. يرتفع صدرها فيكشف ما بين نهديها بوضوح تام ثم يهبطان الى مخأبهما تحت القميص الذي ترتديه ، ومعها الفتاتان في حالٍ من الحزم والشدة؛ تحمل إحداهن هراوة، وتحمل الأخرى سوطًا.

كنتُ جالسًا على السرير، كعجوزٍ يتحسَّر على شبابه الذي مضى قبل أن يراه.

أحطن بي، كالسوار بالمعصم، أو كرجال الشرطة باللص.

هَجَمن عليَّ سريعًا؛ فوضعت صاحبت الهرواة رجلها اليسرى على يميني في السرير ، واسندت جسمها المهفهف على رجلها اليمنى في الارض ، وألقت هرواتها بين يديها مثل صغير تهدهد فيه ، وتنظر الى بعيني يملؤها الحزم والحذر والقسوة ، وكذلك فعلت الصغرى صاحبة السوط مثل فعلها ، حيث وضعت رجلها اليمني على شمالي في السرير ، وهي واقفة على رجلها اليسرى في الأرض

ووقفت "رحيق" أمامي مباشرة ، مثل قاضي يقاضي مجرماً ، بانت لي من وضعيتهما هذه أعجازيهما ومؤخراتهما الرطبة اللينة ، وكذلك بانت أفاخاذهما من تحتي تنوراتهما القصيرتين ، كانت أنخاذهما تلمعان مثل قضبان الفضة ، فأصبحت

أسرق البصر ، تارة لهذه وتارة لتلك ، كانت رائحتهما جميلة كنسائم الصباح وتروائح الغروب .

وهي واقفة أمامي فاتحة أزرار عباءتها ، وقد بانت نخذاها المكتنزان الرعبوبتان بصورة أوضح حتى بان رسم فرجها على بنطالها الشفاف المشدود ، واصبح نهديها مثل سحابتان يحملان مياءه الرحمة التي تغذت البشرية بها ، لا أعلم ما الذي يريدانه ، لكنني ايقنت ليس خيراً ما يريدان فقالت "رحيق" :

"لا تخف... ساعةٌ وسوف ينتهي كلُّ شيء."

لم أرد أن أُظهر لها الخوف الذي تملكني، فقلت:

"أجل."

قالت:

"أتيتُ لأخبرك بما سألت."

ثم أردفت، وكأنها لم تُبالِ بردي:

"هذه أختي "سحيق"، وهي أكبرنا، والمسؤولة عنا بعد موت أبي وأمي."

أشارت نحو الفتاة التي تحمل الهراوة؛ يبدو عليها الكِبَر، وقد تكون هي الكبرى بالفعل. غمزت لي حين نظرتُ إليها في وجهها؛ يبدو عليها أنها مشاكسة، شقيّة، ماكرة أكثر من "رحيق". كانت "رحيق" هادئة وناعسة.

ثم أشارت نحو الفتاة الصغرى التي على شمالي، وتحمل السوط، وقالت:

"أما هذه فهي أختي الصغرى، وتُدعى "ندى"، هادئة، مؤدبة، كما تراها!"

نظرتُ في عيني "ندى"، فكانت فعلًا كما قالت. جاملتني بابتسامةٍ صغيرة على فمها.

قلتُ، وأنا أنظر إلى "رحيق"، وقد سبقني صوتُ ضربةٍ عنيفة في الخارج؛ يبدو من صوتها المهول أنها قريبة من

المنزل. فجفلتُ لها، ونزل قليلٌ من تراب السقف على رأسي، ولكنهنّ بدا عليهنّ أنهنَّ اعتدن ذلك. فقلتُ، وأنا أهتز قليلًا من أثر الضربة:

"ما هذه الضربة العنيفة؟ وما هذه الأصوات العالية؟"

قالت الكبرى "سحيق":

"هؤلاء... الكلاب... الأنجاس..."

قالت ذلك وهي تُقطِّب جبينها، وتعضُّ على شفتيها بقوة.

فقالت أوسطهن "رحيق":

"لا عليك."

وقالت الصغرى، وقد بان شيءٌ من شعرفرجها من تحت التنورة:

"هؤلاء بنو النعمان، وبنو قيعان، وبنو دهمان، يأتون من أماكن بعيدة، ويغيرون علينا بهجماتٍ عنيفة ستَّ مراتٍ في كل سنة، ولكنهم يرجعون خالي الوفاض."

قلتُ لها:

"ماذا؟ بنو من؟ يهجمون؟ لماذا يهجمون؟"

قالت "رحيق":

"نحن طرائق متعددة، وقبائل وعشائر مختلفة... لكن لا عليك، لن يحدث شيء."

قلتُ، وقد التقت عيناي بعينيها السوداوين:

"أنتم ماذا؟ قبائل وعشائر؟ كيف هذا؟"

قالت الكبرى، وهي تمرر يدها اليسرى فوق الهراوة، وتنظر إليَّ بحزم، وتضغط على كلماتها ضغطاً كأنها غضبى لكن لم يبن شئ من تحت تنورتها :

"نعم... نحن قبائل ومذاهب مثلكم؛ منا المسلمون، ومنا النصارى، والمجوس، واليهود، وكذلك قبائل وعشائر. نحن مثلًا يُقال لنا بنو القماقم، لكن..."

فقاطعتها الصغرى قائلة، وهي تلوي السوط في كفها:

"نحن قبيلة كبيرة وعظيمة العدد، معروفون بصلابتنا القتالية..."

ابتسمت "رحيق" وهي تنظر إلى أختها الصغرى، فواصلت "سحيق" قولها:

"... وهناك أيضًا قبيلة الغيلان والسعالي، وأيضًا الميامين..."

فقاطعتها الصغرى، وهي تضحك، وتقول:

"نعم، الميامين! منهم "ميمون السياف"، المشهور بمهارته القتالية العالية، التي يخشاها "الروحانيون" من بين جنسكم."

قالت الجملة الأخيرة وكأنها تريد أن تنقضَّ عليَّ ضربًا بالسوط، فنظرت إليها "رحيق" بحزم، فانزجرت لنظرتها.

وأردتُ أن أُخفف عن "رحيق" غضبها ليّ، فقلت لها:

"من هم بنو النعمان وبنو... بنو لا أدري من؟"

فحوَّلت "رحيق" نظرها نحوي، وشرعت تقول:

"هم من أبرز قبائل الجن، يسكنون القفار والصحارى الشاسعة والوديان السحيقة. هذا طبعهم؛ أرذال وأنجاس، يقتلون العلماء، ويسبون الجنيات ليفعلوا بهن الفواحش والرذائل... قبحهم الله."

قالت الجملة الأخيرة وهي تبصق على شمالها بازدراء.

فقالت "سحيق":

"كل ذلك... بسبب الملوك السبعة."

فقاطعتها أختها الصغيرة "ندى"، وهي تقول:

"ألم أقل لكِ إنك في النهاية ستعترفين بأن الملوك السبعة هم من يسببون هذه الحرب؟"

قلتُ، وقد نظرت إلى "رحيق" في عينيها مباشرة:

"أليس لديكم ملكٌ واحد... وهو "إبليس"؟"

* * *

لم أشعر إلا وأنا أسقط مغشيًّا عليَّ من الضربة التي سددتها لي "سحيق" بهراوتها في ناصية رأسي. كانت ضربةً قوية جدًا. لم أفقد الوعي تمامًا؛ فقد كنت أسمع صوت "رحيق" وهي تُعنِّف أختها الكبرى، تنهال عليها بالشتم والسب. كنت أسمعها أحيانًا، وأحيانًا أخرى أفقد الإحساس بذاتي...شتم... ظلام... سب... ظلام...رأيت "سحيق" و"ندى" تخرجان من الغرفة... ظلام.

"حبيبي... روحي... هاي، أنت... روحي... حبيبي..."

كانت تقول ذلك وهي تحاول أن تُوقظني من غيبوبتي، تضربني بكفها ضرباتٍ خفيفة، وتقول:

"هيا استيقظ، أرجوك... استيقظ."

كنتُ كأنني في حلمٍ من أثر الضربة. رجوتُ في تلك اللحظة أن أستيقظ مما أنا فيه؛ لعله حلم، أو كابوس، أو أي شيء... لكنني رجوتُ المحال، وطلبتُ المستحيل.

فاستيقظتُ... في تلك الغرفة ذاتها.

الغرفة ذات اللوحات الثلاث، والدرج، والمزهرية، والسرير.

وكانت "رحيق" جالسةً بالقرب مني على السرير. كنتُ مستلقيًا، ففتحتُ عينيَّ، فرأيتها فوقي، تبتسم.

قالت لي:

"لا عليك... هذا هو طبعها، لا تكتم غضبها أبدًا..."

فقلت:

"وما الذي فعلتُه حتى أستحق هذه الضربة؟..."

"أظنك أغضبتها بكلمة "إبليس"."

قالت ذلك بصوتٍ ضعيف، وهي تنظر إلى باب الغرفة المفتوح على مضض.

قلتُ:

"وماذا في ذلك؟ هل أخطأتُ...؟"

قالت:

"نعم، أخطأتَ خطأً كبيرًا؛ فنحن لا ندعوه بذلك..."

قلتُ:

"ولكننا نعرفه بهذا الاسم، لا غير..."

حاولتُ أن أجلس وأقوم من رقدتي، ولكن ألم الضربة على جبيني منعني من ذلك، فظللتُ راقدًا على السرير.

قالت:

"هذا لأنكم أعداء له... ولكننا نعظِّمه ونوقِّره ونُكبِره."

أدركتُ في تلك اللحظة أنها كافرة، خبيثة النفس؛ فإن أطعتُها فأهلًا وسهلًا، وإلا فلي الويلات إن اعترضتُها في

دينها، وجادلتُها في عقيدتها. لكن... لماذا أشعر نحوها بهذا الحب؟ لماذا أطلب الوصال؟ لماذا أريدها لي، وحدها لي؟

فقلتُ، مسايرًا لها:

"وماذا تسمُّونه أنتم؟"

فقالت:

"اسمه "عزازيل"، ولقبه "أبو كردوس"، ولا نعرف له اسمًا غير ذلك، لكن..."

قلتُ لها، محاولًا أن أتهرّب من جدلية التسمية التي لا داعي للصراع من أجلها:

"رأيتُ "سحيق" قبل أن تضربني تذكر "الملوك السبعة"، أو ما شابه... ماذا كانت تقصد؟ ومن هم؟"

فأخذت تقول، وهي تنظر إلى الدرج ذي الصناديق:

"هم هؤلاء الذين يحكمون قبائل الجن الأرضية، وكل ملكٍ منهم موكَّل بيومٍ من أيام الأسبوع، ويرتبط بكوكبٍ من الكواكب السيارة، ولون معدنٍ محدد...

هناك مثلًا الملك "المُذَهَّب"، وهو موكَّل بيوم الأحد وفلك الشمس، ويتسم لباسه وتاجه المنسوجان من الذهب.

والملك "مُرَّة"، وهو الموكَّل بيوم الاثنين وفلك القمر، والحاكم لسكان المياه والظلام.

والملك "أبو محرز الأحمر"، موكَّل بيوم الثلاثاء وفلك المريخ.

والملك "برقان"، ويُلَقَّب بـ"أبي العجائب" و"فارس الإسلام"، وهو الموكَّل بيوم الأربعاء وفلك عطارد.

وكذلك الملك "شمهورش"، الحاكم الموكَّل بيوم الخميس وفلك المشتري، ويُسَمَّى "قاضي القضاة".

والملك الأبيض "زوبعة"، موكَّل بيوم الجمعة وفلك الزهرة.

والملك "ميمون أبانوخ"، موكَّل بيوم السبت وفلك زحل، ويُعد من أقوى الملوك وأكثرهم رهبة، ويُلَقَّب بـ"طير النار" لقدرته على الطيران بأجنحة عظيمة، وغالبًا ما يظهر في هيئة "نسرٍ أسود".

قالت ذلك كله، وهي لا تزال تنظر إلى الدرج، وكأنها تقرأ من كتابٍ لا أراه.

ثم التفتت نحوي، فرأيتُ بعض الدموع قد تجمعت في عينيها، تريد الخروج.

لم أجد مواسيًا لهذا الحزن الذي بدأ يلوح في عينيها، إلا أن احتضنتُها من خصرها، ووضعتُ رأسي على فخذها، وقلتُ لها:

"لِمَ تبكين؟..."

قالت:

"كان أبي... قبل مقتله... يعلمنا ذلك... وكنتُ أنا و"سحيق" و"ندى" نأتي إلى غرفته هذه، ونقرأ عليه ما حفظنا... كنتُ أقرأ له من حفظي مثل ما قرأتُ لك الآن..."

قلتُ لها:

"وهل كان أبوكِ يسكن في هذه الغرفة؟..."

قالت:

"نعم... كان زاهدًا في الدنيا، يقاتل ويجاهد سنة، ثم يأتي ليعتزل في هذه الغرفة...

كان يقول إن هذه الغرفة مُلهمة له، تبعث بالأفكار في ذهنه، وكان يؤمن بها...

كان يقول: إن العزلة فيها تعني الهروب من كل شيء؛ الهروب من العالم ونجاسته، الهروب من الخلق وقذارته، الهروب من لا شيء إلى كل شيء... إلى ذاتك... إلى نفسك...

كان يكتب لنا التاريخ، عن جدوده وأسلافه، حتى نقرأه، ليجعلنا نتمسك بأصولنا ومبادئنا...

كان يقول: من لا يفخر بقديمه، لن يجد الفخار في جديده...

هو من رسم هذه اللوحات المعلقة... كان يفتخر بالمعارك التي خاضها مع "عزازيل" ضد "الحن" و"البن" و"الخن"، حتى أبادوهم واستأصلوا شأفتهم."

قلتُ لها:

"من هم الحن والبن وال...؟"

رأيتُها تريد القيام من السرير، فأزحتُ رأسي عن فخذها، وجلستُ.

كانت قد خطت نحو اللوحات، فوقفت أمام اللوحة ذات الجنود الذين يركبون مخلوقاتٍ غريبة، وهم في خضم قتالٍ وعراك مع كائنات كأنها من وحي الخيال...

مرَّرت باطن كفها على الصورة، وكأنها تمحو عنها غبار السنين.

فقالت، وهي تنظر إليها بتمعُّن وتفحص :

"كانت معارك دامية... شرسة، عنيفة... هزّت العالم بأسره... سماءه وأرضه...

تحركت الجبال من ثباتها، وغاصت جزائر البحور، وهاجت البحار في خدودها، وتغيّرت الأرض، وأصبحت حمراء من كثرة الدماء...

مات آلاف مؤلَّفة، وأُسر ألوف... كأن العالم كله أصيب بالجنون...

لكن حدث كل ذلك قبل آلاف السنين."

قلتُ:

"كيف حدث قبل آلاف السنين، وأبوكِ حضر ذلك؟"

حوَّلت عينيها عن الصورة، ونظرت إليَّ بنظرةٍ فيها زجر، وقالت:

"ألم تعلم أننا الجن نُعمَّر آلاف السنين؟ ونحن من المُنظَرين..."

قلتُ:

"كيف تكونون من المنظرين، وأنتم تموتون؟..."

قالت:

"لن تفهم... لن تفهم... لن تفهم."

قلتُ، وكأنني أستهزئ بها:

"وهل أنتِ حضرتِ تلك المعارك؟..."

قالت:

"لن تفهم... لن تفهم... لن تفهم أبدًا."

قلتُ:

"حسنًا، حدّثيني عنها..."

قالت:

"عن ماذا؟..."

قلتُ:

"الحروب التي دارت بينكم وبين هذه الخرافات..."

قالت:

"إذا أردتَ أن أُحدِّثك عن المعارك التي دارت بيننا وبين الحن والبن والحن، فلا أظن أن عمرك القصير هذا يكفي لتكمل ولو كتابًا واحدًا من الكتب التي كتبها أبي عن تلك الحروب..."

قلتُ:

"وهل كتب أبوكِ عن تلك الحروب؟..."

قالت:

"نعم... لديه بعض الكتب في هذا الدرج..."

أتجهت إلى الدرج، وفتحت صندوقاً، لم أفتحه سابقاً، وأخرجت منه كتاباً، وأرَتْنيه، كان عنوانه: "صراع أفشدقون". ثم قالت:

" هذا الكتاب منه خمسمئة مجلد، حجم المجلد ما بين ألفٍ إلى ألفٍ ومئتين صفحة . "

" وعن ماذا يتحدث... "

" يتحدث عن الممالك التي كانت موجودة قبلنا من الخن والبن، وكيف كانوا يديرون شؤون حياتهم، وكيف كانوا يعثون في الأرض فساداً، كيف كانت الرعية تعمل، وكيف كان الحكام يعملون... إنّه يتحدث عن كل ما فعلوه واخترعوه إلى أن أغضبوا الرب... "

ثم رأيتها تخرج كتاباً آخر من صندوقٍ آخر، وأرَتْنيه، عنوانه: "القضاء على الخن والخن والبن".

فقلت:

" وعما يتحدث هذا... "

" هذا الكتاب له ألف مجلد، المجلد ما بين ألفين وخمس مئة إلى ثلاثة آلاف صفحة... وهذا الكتاب فيه من الأسرار النفيسة، والأخبار الفضلى، والسياسات التي اتخذها 'عزازيل الأعظم' وجنده لهزم أعداء الله، وكذلك فيه بعض الفصول التي إذا قرأها القارئ يستطيع أن يبني إمبراطورية من لا شيء، وفيه من الحيل العظيمة التي لم يتطرق البشر إليها، أقلّه أنك تستطيع أن تنقل جبلاً من مكانٍ إلى مكان آخر برمشة عين، حتى ولو كان أعظم الجبال في العالم... "

فقلتُ لها:

" كيف لي بهذه الكتب، وقراءتها... "

" لن يغنيك اجتهادك شيئاً، ولن يسعفك عمرك حتى تقرأ كل هذه الكتب، ولكني أستطيع أن أختصر عليك

السبيل، وأعطيك زبدة ما تبقى مما فيه من العلوم، فإني قاصّة عليك... فهل أنت مستمعٌ لي؟ "

جلستُ على السرير القرفصاء، كما يجلس طالبُ العلم أمام أستاذه، ووضعتُ يدي تحت ذقني، فلما رأت اهتمامي قالت:

" الأمر حدث قبل خلقكم وإيجادكم يا بني الإنسان. خلق الله الجن والبن والحن وأسكنهم الأرض، وكان الجن ضخم الجسم، عريض الصدر، طويل القامة، كان الواحد منهم يعدل الألف منكم، ولكنهم كانوا أغبياء. أما البن فهم أقل حجماً من الجن، ولكنهم أذكى منهم بكثير، فكانت هناك خباثات ومناوشات بينهم، وغيبة ونميمة. فأما الحن فكانوا أقلهم جميعاً، وأذكاهم جميعاً، فسعوا بين الجن والبن بالفتن والتأليب والتحريش، فما هي إلا مدة من الدهر حتى بان ما في الضمائر حقيقة، فالتقى الأعداء، واصطفت الصفوف،

وبدأت المبارزة، فما مضت عليهم ساعة في المعركة حتى أصبحت الجثث مثل الجبال، كادت من ارتفاعها أن تبلغ عنان السماء، والدماء تسيل في الأرض كالأنهار المتدفقة، والطوفان المتفجر من الأرض. وبعد ذلك تتالت عليهم الحروب والمعارك، فكان الحن يأمل أن يتفانى الاثنان، ويبقى هو وحيداً، منفرداً بالأرض وسعتها، ولكنه أطالته يد الخبث التي رمى بها، فأصبح بين الاثنين، ينطحانه مثل الثورين الهائجين، فكان أسرع شيء إلى الفناء، وانتهت سيرته، وانقطع خبره ونسله. فانفرد الحن والبن في الأرض، ولم تسعهم لما بينهم من الحقد والكراهية، فأصبحت المعارك بينهم دولاً، والحرب سِجالاً، فأفسدوا في الأرض أشد الفساد، وسفكوا الدماء، وقتلوا من كان فيهم من العلماء، والصغار، والكبار، والضعفاء، وقضوا على الأخضر واليابس، فغضب الرب لذلك، وسخط عليهم سخطاً شديداً، فأراد أن

يقضي عليهم بجندٍ من عنده، فبعث إلى "عزازيل" وهو من قبيلة الجن ونفرهم لما أوكله الله له، وقد كان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، وكان له أربع أجنحة... كان وسيماً وجيهاً، ذا هيبة وجمال، وكان من خُزّان الجنة وسُمّي لذلك "الحارث". فأرسله الرب في جيشٍ عرمرمٍ كبير، وكان هذا الجيش أول جيش يخرج من السماء نازلاً إلى الأرض من أجل العدل، كانوا يلبسون درع النور السماوي ويحملون سيوفاً صُنِعَت من غضب الرب، وكلُّ واحدٍ منهم يركب البُراقَ السريع، وعليهم خوذاتٌ مُطرَّزة بريش الرحمة. أشكالهم مهيبة، وأعدادهم مريعة، وكان "عزازيل" يقودهم بكل حنكة وبسالة، يضع لهم الخطط، ويرسم لهم التكتيكات، ويعقد لهم الشورى، فيشاور أعوانه ونوابه، فيسمعون رأيه ويسمع رأيهم، حتى دخل مع الخن والبن مئات المعارك... دارت معارك في كل بقاع

الأرض: شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، وأكثر المعارك دارت في وسط الأرض في أرض تسمونها "الشام".

وكلُّ ذلك "عزازيل" ينتصر عليهم، حتى مضت آلاف السنين وهم في قتال وعراك، كما ترى في الحائط هذه الصورة التي رسمها أبي ليعبر عن حدة المعارك... فلما طال القتال، لم يبقَ من الخن والبن إلا القليل، وهرب من تبقى منهم إلى جُزُر البحار وأطراف الجبال، فلحقوهم وأعملوا فيهم القتل والتمثيل حتى أبادوهم.

فستولى "عزازيل" على بقاع الأرض كلها، فملكه الرب إياها حين رأى طاعته له وسماع أمره، وزاده على ذلك سلطان السماء الدنيا، فأصبح "عزازيل" ملكاً على السماء الدنيا وملكاً على الأرض، وكذلك هو واحدٌ من خُزّان الجنة، ولكنها النار يا حبيبي... حين تستولي على الشيء العظيم تتطغى وتتعالى. فتفاخر في نفسه وقال: ما أعطاني

الرب ملك الأرض والسماء إلا أنه علم أنني أفضل الملائكة.

ولكن قلم القدر الذي لا يخطئ، وصروفه التي لا تنثني، ونوائبه التي على كل الخلق تجري، فقال الرب: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة". فأرادت الملائكة أن تستعلم هل هو سيكون مثل الخن والبن والحن **الذين أفسدوا في** الأرض وسفكوا فيها الدماء. فأمر الله الملائكة العظام أن يأتوه بطينٍ من الأرض حتى يخلق منه هذا الخليفة، فرجع كلُّ ملكٍ حين أعاذته الأرض بالرب، إلا عزرائيل فإنه لم يعصِ الرب ولم يحزن الأرض، فأخذ من كل بقعةٍ في الأرض قدراً قليلاً من الطين.

فسوّى الرب من هذا الطين آباءكم، وكان كالفخار، أجوف، واقفاً أربعين سنة، فكان "عزازيل" يتأمل في نفسه، وخاف أن يأخذ ملك الأرض عنه، فأراد أن يبرر

لنفسه، فكان يدخل في فيه ويخرج من دُبُره، ويقول للملائكة: لا تراعوا، فإن هذا ليس بربكم، هذا أجوف وربكم أصم. فداخله العناد في نفسه، وتملَّكته حديث النفس، فجعل يقول: لئن سُلِّطتُ عليك لأُهلِكنَّك كما أهلكتُ الجن والبن، ولئن سُلِّطتَ عليّ لأعصينَّك.

فأمر الرب الملائكة كلَّهم أجمعين أن يسجدوا لهذا البشري العجول، الذي قبل أن يكتمل نفخ الروح فيه دبّ أن يقوم إلى ثمار الجنة حين رآه. فأصبح حديثُ نفس "عزازيل" طاغياً عليه، ونسِيَ أمر الرب، وشعر وكأن هذا البشري هو من يأمره وليس الرب، لأمرٍ يُراد. فعصى، ولم يدرِ بذلك أنه عصى الرب، وكان الرب قد علم قبل ذلك ما حدّث به "عزازيل" نفسه، فأراد أن يظهر ما في نفسه على أهل الملأ الأعلى، حتى يشهدهم على جرمه.

فعاقبه الرب لكِبره وعُجبه بنفسه، فطرده من ملكوته، ونزع ما في يديه من الملك، وأنزله الأرض..."

وكانت طول ذلك كله تقلّبُ في صفحات الكتاب الذي تحمله، وكانت قد ترقرقت بعضُ الدمعات في عينيها، كأنها تروي قصة مأساوية، أو كأنها ترثي أحداً عزيزاً على قلبها.

فلما انتهت من تقليب الكتاب، نظرت إليَّ وقالت:

" ثم حدث بعد ذلك ما هو معروف من... "

لم تكمل كلامها... ففتحت "سحيق" الباب بعنف، فإذا بها وسط الغرفة، فنظرت نحوي بقوة، وقالت:

" لا زلتَ حيّاً أيها المسخ... "

عدواة

لم أكن مهتاجًا عاطفيًا كما كنتُ اليوم؛ شعرتُ بالسعادة والغضب معًا، شعرتُ بالفرح والحزن، شعرتُ بالخبل والجنون، وبالعقل والصحة، شعرتُ بالفقد والعطاء لم يكن ذلك الغروب سوادًا واحمرارًا فقط، بل كان صباحًا ومغامرة. وما زلتُ أسأل نفسي إلى اليوم: كيف دخلتُ الغرفة المهجورة وهي مغلقة؟ وكيف رأيتُ الظلام يُسدِل ستاره على القرية سريعًا؟

لا زلتُ محتارًا، رغم معرفتي كيف ولماذا كانت المدينة خالية وفارغة. لا زلتُ أذكر الغرفة التي حُبستُ فيها، ولا زلتُ أذكر الفتاة التي تُدعى "رحيق"، وعينيها السوداوين حين أخبرتني بمعارك الخن والبن.

لكنني الآن شِختُ وكبرتُ، كأن الزمن والأيام يتسابقان في قتلي...

لا زلتُ أذكر أختها "سحيق"، وكيف وقفت أمامي في وسط الغرفة، وهي تقول:

"لا زلت حيًّا، أيها المسخ..."

شعرتُ حينها بأن الغضب يُصَبُّ في قلبي صبًّا، فجاء رد فعلي أن قلتُ:

"بل أنتِ المسخ، أيتها اللعينة..."

رأيتُ اليأس في عيني "رحيق"، وهي تمسك الكتاب وتنظر نحوي، كأنها تقول: وقعتَ ولم تُسِمّ.

وإذا بـ"سحيق" تفرك يدها بالأخرى، وكأنها تقول: لقد وقعتَ ولم تُسِمّ.

فجاء ردها، إذ قالت:

"لولا خلقكم، لكنا في السماء، نمرح ونسرح حيث نريد...

ولكنكم، مثل الشؤم، برزتم إلى الوجود، بل وغير ذلك أمرتمونا بالسجود لكم..."

قلتُ لها، وقد استغربتُ الأمر:

"من أمركم بالسجود؟ نحن؟ ما الذي تقولينه؟"

قالت:

"نعم، أنتم أمرتمونا بالسجود لكم... رغم حقارتكم وضعف خلقتكم... بل وجعلتم أنفسكم في الجنة..."

قالت لها "رحيق"، وهي تعلم أن "سحيق" لن تستجيب لها في حالة الغضب هذه، لكنها حاولت، فقالت:

"أنتِ مشوشة الآن يا "سحيق"، اهدئي من غضبك حتى لا تقولي كلامًا لا تُحمد عقباه."

قالت "سحيق"، وقد كادت أن تلطم "رحيق" الواقفة خلفها، وهي تقول:

"وما الذي تعرفينه عنهم؟ لقد عشتُ معهم سنين، وأنا أعرفهم أكثر المعرفة... يتذللون لنا كما تذل لهم الدواب

التي يركبونها. العلماء الذين يسمون أنفسهم "الروحانيين" هم الأكثر تذللًا لنا، وكذلك السحرة والكهنة والمشعوذون..."

قلتُ، محاولًا أن أردَّ التهم التي ترمينا بها هذه الجنية:

"وأنتم، لِمَ تتسترون وتحتجبون، وتجْرون فينا مجرى الدم، وترون من حيث لا نراكم؟ لِمَ لا تظهرون لنا كما نحن ظاهرون؟"

قالت:

"هذه قوة خارقة، يا بليد الذهن! هذه سابقة لنا عليكم، هذا سلاحنا، وهو ليس مثل سلاحكم، الذي هو من الكلام والألفاظ..."

قلتُ:

"أليس لديكم عملٌ آخر غير إفساد البشرية؟ أعني أن كل فردٍ منكم متخصص في إفساد جانب من جوانب السلوك البشري..."

قالت:

"قلتُ لك، أيها الأحمق الأبله، لولاكم لكنا في السماء والملأ الأعلى... ولكنكم... فأنتم تستحقون هذه العداوة ما دمتم أحياء..."

قلتُ:

"لِمَ تتشكلون في صورة الحيّات والكلاب والأشكال المخيفة؟"

قالت:

"هذه قوانا الخارقة... فأين قواكم أنتم؟ آه، أخبرني... في الكلام؟... وليس هذا فقط؛ بل منا من يطير، ومنا من يحلّ ويظعن... نظهر في صورة الخيل والبغال والحمير... فنأكلكم..."

كانت تقول ذلك وهي تضحك بقهقهة عالية، كأنها تقول: لقد انتصرتُ عليك، أيها البشري المسخ.

فقلتُ لها:

"لماذا استكبر "إبليس" أمر الله ولم يمتثل له؟..."

كادت أن تنقضَّ عليَّ لتقتلني، أو تخرج كبدي من بطني، لو أن "رحيق" سمحت لها بذلك، لكنها منعتها عني.

فقلتُ مردفًا:

"لأنكم خُلقتم من نار؛ سريعة الغضب، متعجرفة مثلك... متكبرة، عاتية، طاغية، لا تعرف جميلًا ولا تُنكر قبيحًا... خانه الطبع، وبانت حقيقته عندما جاء وقت الامتثال للأمر... لعنة الله..."

"لا تقلها... أرجوك... لا تقلها..."

صرخت "رحيق" بذلك.

كانت الكلمة كأنها سهمٌ أصاب "سحيق"، فأرداها مغشيًا عليها.

لم تكن الكلمة بهذه القوة عندما كنتُ هناك، في عالمي الذي أتيتُ منه... لكنها هنا لها أثرٌ فعّال.

ربما هناك كلمات أخرى أستطيع بها أن أُبيدهم جميعًا... أو أصبح عليهم سيدًا.

هي... فقط كلمات، لا غير

* * *

الشعور بالذنب مؤلم، أن يتألم قلب من تحب، أو تؤلم له من يحب هو، فتؤلمه بذلك، أيضًا هو شعور مؤلم. عندما قلتُ "لعنة الله" سمعتُ ورأيتُ "رحيق" تصرخ، وكأنها تناشدني

بالحب والعشق الذي بيننا، ألّا أكمل حذ عنق "سحيق"، أختها الكبيرة المشاكسة، العنيدة، التي ترمي بالكلام ولا تبالي بعواقبه. حتى الأعداء يعجبنا فيهم شيء ما، وما أعجبني في "سحيق" هو صراحتها ووضوحها التام، كانت لا تبالي، سواء عندها رضيت أم غضبت.

أخذتها "رحيق" ووضعتها على السرير وهي مغشيٌّ عليها.

كنتُ أقف أمام صورة الوحش أو الملك الجالس على الكرسي فوق الماء، نعم هو عزازيل بشحمه ولحمه، لكن بعد أن طُرد من الرحمة الإلهية وأصبح قبيحًا رجيمًا. قلتُ لـ"رحيق"، وقد كانت جالسة على السرير واضعةً رأس أختها على حجرها:

"صراحة... لماذا لكم اليد الطولى في الأرض؟ فمثلًا يذهب واحد منا، بني البشر، إلى جزيرةٍ في أقصى الأرض، مهجورة، لا يسكنها أحد، خالية تمامًا، فإذا به يأتي مريضًا،

ويقوم الأطباء والشيوخ والعلماء، فإذا به في نهاية المطاف... مسٌّ من الجن! أعني... كيف وصلتم إلى هناك قبلنا؟ كيف نجدكم في كل مكان بعيد، ناءٍ، غامض؟"

قالت وهي تمرر يدها على شعر أختها المغشيّ عليها:

"أنت تعلم كما قصصتُ عليك... قبل حلول هذه الكارثة... أننا سبقنا الوجود البشري، وسكنا قبل آدم الأرض بألفي عام، مما جعلنا نمتلك معرفةً بتضاريس الكوكب وأسراره."

قلت:

"وكيف لكم القدرة على التشكل والتحول؟ هل هي تعاويذ تقولونها أم شيء آخر تفعلونه؟"

"نحن... كما تعلم بالطبع... خُلقنا من نار عاتية، وهي نار تخلو من الدخان وتتسم بالقدرة على النفاذ والتشكل... كما أننا صرنا أجسادًا لطيفة رقيقة لا تُرى في حالتنا الطبيعية،

لكن نمتلك قدرة فائقة على "التشكل" و"التصوّر" في أي صورة مادية نريد."

قلت لها:

"نحن نسمع عنكم... فنقول الشيطان... والمارد... والعفريت... والعامر... وغيرها من الأسماء التي يسمّيكم بها بنو جنسي... فهل عندكم هذه التسميات أم ماذا؟"

"نعم، هذه التسميات معروفة عندنا... فنسمي الجني إذا ذُكر دون قيد "جنيًّا"، وإذا سكن مع الناس في بيوتهم سُمّي "عامرًا"، أما إذا كان من النوع الذي يتعرض للأطفال ويسبب لهم الفزع فيُطلق عليه "أرواح"، فإذا تطور وتعرض للناس بالوسوسة والأذى سُمّي "شيطانًا"، فإذا قوي أمره وزادت وسوسته سُمّي "ماردًا"، وإذا وصل إلى قمة القوة والبطش والمكر سُمّي "عفريتًا"... والعفريت ليس كيانًا أو جنيًا عاديًا، بل هو يجمع بين الدهاء والفكر والسطوة المادية،

ولديه قدرات تتجاوز حدود الزمن والمادة المعروفة للإنسان..."

سعلت "سحيق" سعالًا حارًا يخرج من جوفها، كأنها طُعنت في قلبها بسهم مسموم، أو كأن الروح نُفخت في داخلها للتو. أجلستها "رحيق" على السرير، فإذا بها تجدني أمامها واقفًا أمام اللوحات المعلقة على الحائط، فقالت وهي تحاول أن تنقض عليّ لتخنقني أو لتضربني ربما:

"لا زلت حيًّا أيها المسخ..."

خرجت من الغرفة غاضبة، لكنها لم تجرؤ على ضربي هذه المرة، وجلست "رحيق" وهي تتأملني، كأنها تقول لي: "لا عليك"، وإن كرهتك أختي فإني لا زلت أحبك، أقدسك ، أعبدك ، أعشقك ، كانت نظراتها تقول : " تعال . أقترب نحوي ، ضاجعني بعنف ، أقتلني تحت يديك من عناقك لي ، مثل ما يقتل العدو عدوه حقداً ، ولكنك

أقتلني حباً وشهوةً ، أستمتع بي وأستمتع بك ، أرجوك ضاجعني ولو على عجلة ، أنت ممثلاً للبشر وانا ممثلة للجن "

أقتربت نحوها وهي جالسة على السرير ، كانت شهية ، مغرية ، مثيرة ، ذراعاها الممتلئتين ، ونخذيها الرعبوبتان ، وخديها الاسيلين ، وشفايفها الممتلئتان ، الناعمين ، قبلتها في شفايفها ، واخرجت لسانها فمصصته ، و مصصت شفايفها ، واحتضنتها بقوة ، كان الماضي والمستقبل يلتقيان في تلك اللحظة ، السماء اصبحت أرحب ، والدنيا أوسع ، واللذة في نهديها مركزة ، أدخلت يدي تحت لباسها ، فرجفت ، داعبتها في شعر فرجها ،أرتعشت ، فإذا بها تنهار مائعة كقطعة من الثلج يذيبها شعاع من الشمس ، كانت شهوتي تتقد وتزداد ، وإذا بها تموع أمامي ، طرحتها في السرير ، واخذت برجليها ووضعتهما فوق أكتافي ، وحللت سروالي ، كان مثل شفايفها مدبب ، أملس ، ناعم ، ضيق ، عميق ،

شعرت بالحياة حينها ، الحياة في ثلاث ، مضاجعة ، وأكل وشرب ، ونوم ، قمتها ما انا فيه الآن من شعور شهواني طاغ ، كنت أسمع آهاتها القاتلة ، الأنثوية ، وظللنا على ذلك مدة ، فإذا بها تبتسم لي وكأنها تتوجع ، أعتليتها في أعلاها وعانقتني بقوة ، وانا اقبل ما بين نهديها ، الذكريات تتضارب ، وتهرب ، الأنات تخرج تارة مني وتارة منها ، لكنه لم يدم طويلاً . . .

* * *

"لم تخبريني عن هذه الحية قط؟"

"هذه الحية لكي... ليس بالشيء الذي يُذكر، إنها مجرد حية، لا تشغل بالك بها... لن تفعل لك شيئًا..."

"ولكنها منعتني النوم... آه... تذكرت... أنا لم أنم منذ مدة... ولكن لماذا الشمس لا تغيب بالخارج؟ لماذا لم يأتِ الظلام بعد؟ لعله قد مر يوم أو أكثر على ما أظن...

أخبريني عن الحية..."

لم تكد "رحيق" تتفوه بما تريد أن ترد به، حتى دخلت أختها الصغيرة "ندى"، وهي تحمل ابن "رحيق" الصغير "لام"، فحوّلت كلامها إلى أختها قائلة:

"لماذا أتيتِ به هنا؟"

"لم يسكت... كان يبكي، فقط يبكي... هاكِ... أسكتيه."

كان وسيماً، ملائكياً، جنياً، من النوع الذي يحمل رائحة التراب في جيبه وحول عنقه، بريئاً، أحببته من أول وهلة. كيف لا أحبه وقد أحببت أمه؟ تمعنته لأول مرة بهذا الشكل، قلت لها:

"هل تحبينه... أعني، هل يعني لك شيئًا؟"

"ماذا... كيف... لماذا لا أحبه؟ وهو جزء مني..."

"لكنه من صلب رجل... قتل أباك... وهو عدو لك..."

"اخرس... اصمت... أنت..."

رأيتها وهي تنهار بالدموع، مثل جبل من الجليد طلعت عليه شمس الصيف الحارقة. لقد أخطأت، لقد أغضبتها، غلطت في حقها، ما كان لي أن أقول لها ذلك. النظرات في عيني أختها الصغرى أيضاً مؤلمة، قاتلة، زاجرة، غاضبة. أدركت حينها أنني فعلت أمراً عظيماً، جسيماً. لقد ضاقت علي الأرض بما رحبت، وضقت بنفسي ذرعاً. كيف أرضيها؟

كيف أمحو خطأ فعلتي القبيحة؟ لم تخطئ معي أبداً، ولم تعاتبني حتى بعد أن أسأت لكل من عنصرها وأبيها وقبيلتها. لقد أسأت لبني جنسها، وكانت تدافع عني رغم ذلك، وتحامي عني من أختها الكبرى. ما الذي فعلته؟ ماذا أقول لها؟ هل أقول لها: اعفُ عني أرجوك؟ هذا مستحيل. أو أقول لها: لم أقصد ما قلت؟ لكنني قلته على أي حال.

فخطرت لي فكرة، فقلت لها بعدما رأيتها سكتت من نوبتها الفجائية، وخمدت نظرات أختها الهائجة المغتاظة:

"لم تحدثيني ما الذي حدث لكم... بعد أن هبطتم إلى الأرض..."

نظرت إليّ، وكأنني طيف بدا في خائنة عينها ثم اختفى، فعادت تنظر إلى طفلها المحمول بين ذراعيها وهي جالسة على السرير، وكذلك فعلت أختها "ندى"، لكنها أعادت

الكرة بالنظر مجدداً، ثم رأت مثل ما رأيت، فقالت وهي تجاريني:

"نعم يا أختي... أخبرينا عن قصة النزول... وكيف حدث الأمر... وكيف هبطنا وهبط معنا هؤلاء الشؤم إلى الأرض... وما كان من أمرهم وأمرنا في ذلك..."

نظرت إلى أختها، ثم ابتسمت لها، لكنها تحاشت النظر إليّ، فقالت:

"كان بدء الأمر حين لعن الرب "عزازيل" وطرده من الملأ الأعلى، فلم يقر له قرار، ولم يهدأ له بال، وضاق عليه الكون كله، وحمله ما في نفسه أن أقسم ليجعلن "آدم" ألد أعدائه. فذهب من محضر الملائكة وهو يحمل في نفسه عداوة سوف تنتقل من صدره إلى كل ذريته من بعده. وإن "عزازيل" أصل الجن كلهم، كما أن آدم أصل البشر. فجاء إلى الأرض يتيه فيها على وجهه حيران لا يهتدي إلى مكان،

فأصبح لا يأتي السماء إلا سرقة وهو ذليل، وآدم في الجنة منعم، مهنأ فيها، يأكل مما طاب ولذ له، حتى إنه سأل الرب من يؤانسه، فجعل له زوجة خُلقت من ضلعه، وشُقّت من شقه الأيسر. و"عزازيل" في الأرض يبحث عما يهلك به آدم ويقضي عليه، فلم يجد طريقة سوى أن يجعله يعصي الرب..."

قلت لها:

"وأين سكن الجن حين نزلوا إلى الأرض؟"

لم تهتم بسؤالي، ولكن أعادت عليها "ندى" ما قلت، فقالت وهي تتحاشى النظر إليّ:

"أماكن سكننا هي الحشوش، والفلوات، والقفار، والكهوف... وهناك مدينتان لا يعلم بوجودهما إلا قليل من البشر، مملوءتان بعدد لا يعلمه إلا الله من الجن، موجودتان خلف جبل قاف الأخضر المخلوق من الزبرجد، ويُعطي

السماء لونها الأزرق، وهي مدينة جابلقا في أقصى الشرق، ومدينة جابارسا في أقصى الغرب، وهما موطئان للجن..."

"هل هما على هذه الأرض؟"

سألت أختها الصغرى.

"وراء هذه الأرض بحرٌ محيط بها، ووراء هذا البحر جبل يقال له جبل قاف، سماء الدنيا مرفوعة عليه، ووراء هذا الجبل أرض مثل هذه الأرض سبع مرات، ووراء ذلك بحر محيط بها، ثم خُلق من وراء ذلك جبل يقال له قاف أيضاً، عليه السماء الثانية مرفوعة، وهكذا حتى سبع أرضين، وسبع أبحر، وسبع جبال، وسبع سماوات..."

فقالت الصغرى:

"وسبع ملوك..."

وقالت "رحيق":

"وسبع قبائل..."

وقلت مسايراً لهن:

"وسبع أيام..."

فقهقهن بالضحك، وظللنا على ذلك مدة. فقلت لها بعد أن رأيت انشراح صدرها وزوال الغضب عنها:

"فماذا فعل "عزازيل" حتى يقنع آدم بالعصيان؟"

قالت "رحيق" وهي تنظر إليّ، ويبدو عليها أنها قد نسيت ما أغضبها وأحزنتها به من الكلام:

"عندما طرد الرب "عزازيل" من السماء، وقد كان فيها مكرماً عزيزاً، فأصبح لا يأتيها إلا سرقة وهو ذليل، فلم يرَ "عزازيل" رضاه إلا في أن يخرج آدم من الجنة، فوسوس إليه، قال: يا آدم، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟ وكان الرب قد أخبر آدم أن هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إذا خرجت منها، وقد أخبره بما فيها من عدم الجوع والعري، وهما عز الباطن والظاهر،

وأنهما لا يظمآن فيها ولا يضحيان، والظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر. وكانت في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، وهي شجرة الخلد، من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث.

وكان الرب قد عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار في الجنة ولا يقربا هذه الشجرة، فلم يزل "عزازيل" بآدم يزين له الشجرة، بأنها مناط الخلود، وبسببها يحصل لهما الملك العظيم، فأكلا منها، فبدت لهما سوآتهما ، فأول ما بدا منهما عورتهما ، فلما نظر آدم الى عورته جعل يشتد في الجنة ، فناده الرب ، يا آدم مني تفر ، فلما سمع كلام الرحمن قال يا رب لا ، ولكن استحياء ، فقال الرب يا آدم أخرج من جواري فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني ، فأخرجهما مما كانا فيه من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنئ والراحة ، وقال الرب اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض

عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ، ، ولكم فيها أرزاق وآجال ، الى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة ، فنزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الاسود وقبضة من ورق الجنة ، فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب فإنما أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التي هبط بها آدم ، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها ، وهبطت حواء بجدة ، وهبط 'عزازيل' بدستميسان من أرض البصرة ، والرب حين أهبط آدم من الجنة الى الأرض علمه صنعة كل شئ وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير "

فقالت "رحيق" وهي تنظر الي :

" كنتم قوماً من أهل الجنة فسباكم 'عزازيل' الى الدنيا ، فليس لكم إلا الهم والحزن حتى تردون الى دياركم التي

أخرجتم منها " فقالت أختها الصغرى وهي تضرب كفاً بكف :

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

* * *

شعرتُ بالحزن، أو بالأحرى هنَّ أشعرنني بالحزن. كانت رحيق تقصُّ عليَّ ذلك كأنها حضرت كلَّ ما حدث، كأنها رأت بداية الصراع الأزلي بين الشيطان والإنسان، شهدت النواة الأولى للعداوة التي علم خبرها كلُّ مخلوق كان موجودًا، إلا الإنسان فإنه ينسى، ينسى من سباه من

وطنه، ومن أخرجه من نعيمه الذي كان فيه. والعجيب في الأمر أنهم يتعاونون فيما بينهم، فمن الخائن لأصله: هل هم الإنس أم الجن؟ كان هذا الحديث يدور في نفسي، وأمامي على السرير مباشرة كلٌّ من ندى ورحيق وهما يلاعبان لام الصغير.

قلتُ لـ"رحيق":

"كيف كانت حياة البشر والجن بعد ذلك... أعني كيف اتسعت لهم الأرض ولم تتسع قبل ذلك لكلٍّ من الجن والبن والجن؟ أعني العداوة التي نشبت بين عزازيل وآدم هي أشد من العداوة بين تلك المخلوقات التي سبقت وجودنا على هذه الأرض..."

ابتسمت "ندى" لقولي، فكنت كالعادة آتي بالأسئلة وأصبها على خليفة أبيها في العلم والمعرفة، ثم عشيقتي التي لا أعلم

لماذا أتت بي إلى هذا العالم. وكانت الأسئلة تجد وقعًا جميلًا في أذني ندى، فكذلك استلطفت هذا السؤال فقالت:

"نعم... أرجوك أخبرينا يا أختي... دعيني أحمل عنك هذا الصغير الجني."

حملت ندى لام الصغير، وقامت رحيق من جلستها تلك، وتحركت نحو الدرج، وسحبت صندوقًا آخر لم أفتحه سابقًا، وكذلك لم تفتحه قبلاً، وأخرجت كتابًا، وأرتنيه، ثم أرته لندى، كان عنوانه: "الصراع بين الجن والإنس". ثم قالت: "هذا الكتاب له مئة مجلد، كل مجلد له ألف صفحة، يتحدث عن بداية الصراع بين الجن والإنس، وكذلك بداية حياة الإنس على الأرض، وبداية حياة الإنس مع الجن، وما كان من أمرهم، وتحدث عن الاتفاقات السرية التي حصلت بين بعض أفراد الإنس مع بعض أفراد الجن، وتحدثت عن النبوءات البشرية كلها، من عهد آدم إلى

عهد محمد بن عبد الله... لكنني سوف أختصر عليكما الطريق وأعطيكما خلاصة الأمر كله..."

قلنا بنبرة واحدة متناغمة:

"حسنًا..."

فقالت بعد أن رأت اهتمامنا:

"حسنًا... بعد أن هبط آدم وحواء إلى الأرض، بدأ بتكوين حياتهما فيها، وكان الرب قد علمهما الزراعة وبناء المنازل، فمضت عليهما السنوات وألفا الحياة على الأرض وأنجبا الأبناء، وتوالدت الذرية، وكثر عدد البشر على الأرض. ومضت السنين وبدأت الناس تضل عن الطريق المستقيم باتباع أنفسهم واتباع عزازيل الذي طُرد من الرحمة وكُتب من الخالدين في النار، فأرسل الله الرسل لكي يهتدي الناس إلى الطريق المستقيم. فانكبَّ الناس على الشهوات وعبادة الأصنام واتخاذ الأنداد، فأرسل الله مزيدًا من الرسل

مبشرين ومنذرين، فآمن من آمن وكفر من كفر، وتباعدت أزمان الأنبياء، وجاءت الفترات، بين كل نبي ونبي ما يقارب الألف سنة أو الألفين.

فتعاقد بعض أفراد الإنس، وهم المشعوذون والكهان والسحرة ومن هم على شاكلتهم، مع بعض أفراد الجن من الأعوان والخدام، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول.

وكان قبل ذلك الجن يخافون من الإنس كما يخافون منهم هم الآن وأشد، وكان الإنس إذا نزلوا واديًا هرب الجن، فيقول سيد القوم من الإنس: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي.

فقال الجن: نراهم يخافون منا كما نخاف منهم، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون.

ومن طريف ما أذكره عن أصحاب العهد القريب الذين تسمونهم الجاهليين، أنهم كان يقول الرجل منهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أُضَرَّ أنا فيه، أو مالي، أو ولدي،

أو ماشيتي. والعجيب في الأمر أنهم إذا عاذوا بهم من دون الرب، رهقتهم الجن الأذى عند ذلك... فكان هؤلاء المتعاقدون يفسدون أكثر مما يصلحون، ويضرون أكثر مما ينفعون... حتى إن الكاهن في القديم كانوا ينصبونه إلهًا وربًا، وكانوا يسجدون له. وحقيقة ذلك أن الجن يسترقون السمع فيأتون بالأمر من السماء إلى الكاهن والساحر، فيخبرونه بما سمعوه ويزيدون على الكلمة الواحدة مئة كلمة، وبذلك وجدوا مكانة في مجتمعاتهم لم يجدها الملوك ولا التجار.

فيرسل الله الرسل والأنبياء لكي يهدوا الناس إلى طريق مستقيم... حتى جاء آخر نبي، النبي الذي أُرسل إليكم وإلينا، وأُرسل إلى العالمين كافة..."

فقلت لها وأنا مشدوه، أنتظر خبر ما يحدث بعد ذلك:

"وما الذي حصل عندئذ...؟"

قالت:

"...حين أُنزل القرآن على نبيكم، مُنعنا من السماء ومُلئت حرسًا شديدًا، وحُفظت من سائر أرجائها، وطُردت الجن عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة. ولم تكن السماء تُحرس إلا إذا كان في الأرض نبي أو دين لله ظاهر.

فكانت الجن قبل نبيكم قد اتخذت مقاعد في السماء... أما من يروم أن يستمع اليوم ويسرق السمع، يجد له شهابًا مرصدًا لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه.

فأخذنا نضرب مشارق الأرض ومغاربها لنعرف لماذا حُفظت السماء دوننا... فذهبنا إلى عزازيل فحدثناه بالذي كان، فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها. فأتيناه، فشمَّ، فقال: صاحبكم بمكة. فبعث سبعة من جن نصيبين، فوجدوا محمد بن عبد الله يقرأ بأصحابه في الصلاة،

فعرفوا أنه هو الذي حُفظت من أجله السماء، فآمن من آمن، وتمرد في طغيانه من تمرد..."

قلت لها:

"صدقت... فقد بلغنا... أنكم رُجمتم ليلة من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء، مات أهل السماء، لما رأوا من شدة النار واختلاف الشهب، فجعلوا يعتقون أرقاءهم، ويسيبون مواشيهم. فقال لهم عبد يا ليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف، أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أماكنها، فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة..."

إستيقاظ

ليس لي في هذه الغرفة أي بقاء، الأمر كان ولا يزال صعبًا، مثل نجمةٍ أغفلت أن تخفي نفسها حين طلعت عليها الشمس، فبان للعالمين رسمها وهيئتها، كانت كذلك الحقيقة قد بانت أمامي واضحة لا مراء فيها.

كنت جالسًا وحدي على السرير الموجود في الغرفة، أفكر، أتأمل، أحلل: لماذا أنا هنا؟ ما السبب الذي جاءت بي به إلى هنا؟ ما الذي تريده مني؟ لو أنني أعرف الحقيقة كاملة، غير ناقصة، واضحة غير مواربة، صريحة غير ملمحة، لو أنني أمسك ناصية العجز الذي أخرسني، لو أنني أروي فضولي، لو أنني أغني أمام صروف الزمان وخطوبه، أغني

أغنية البأس، الشجاعة، الفخار. أعلم أن الموت وشيك وأن الحياة زائلة، لكنني لو أشفي ظمئي إلى المعرفة، إلى الحقيقة. طيلة أربعين عامًا من حياتي لا أريد إلا أن أعرف الحقيقة، طيلة أربعين عامًا وأنا أبحث عن الصدق. بحثت في كل مكان، بحثت في المكتبات القديمة، بحثت في المخطوطات الأولى للبشرية لعلي أجد معنى اسم رحيق، فما وجدت غير رحيق الزهر، الزهرة الموجودة في الأصل ربما، النبتة ذات الزهرة ذات الحية الموجودة في تلك الغرفة ربما. بحثت في كل محرك بحث في العالم لأعلم أين كنت حين ذاك، بحثت في الرسومات واللوحات القديمة لأرى إن كنت سوف أجد مثل تلك اللوحات المعلقة على الحائط، بحثت عن أسماء الكتب: "الصراع بين الجن والإنس"، "صراع أفشدقون"، "القضاء على الحن والحن والبن"، كانت كلها مجرد أسماء من عالم آخر، لم أجد كتابًا حتى ولو مثلها

في الشكل أو الحجم أو اللون. أين أجد العزاء في هذا العالم البشع؟ النجوم تغازل السماء، والشعراء مرضى لهم توابع من الجن، والكتّاب يشعرون بالفقد، والفقراء قساة، والأغنياء لا يبالون، والعجيب في الأمر أن الرب يرى، يرى كل شيء، ويسمع كل شيء، فهل هو يراني وأنا أجلس على هذا السرير، أجلس أفكر: كيف المخرج وأين السبيل؟

فتحت الباب كعادتها، كانت تحمل همًّا فوق وسعها، لا يكلف الرب نفسًا فوق قدرتها وسعتها، انحنى كاهلها من شدة التفكير، ثم قالت:

"لقد حان الوقت... حان الأمر الذي لا بد منه... مضى أسبوع منذ آخر هجوم لبني النعمان، وبني قيعان، وبني دهمان... يجب أن أخبرك بالحقيقة..."

"نعم، أظن أنه قد حان الوقت... انتظرت طويلًا حتى أعرف..."

قالت وهي تجلس بالقرب مني على السرير:

"الأمر أنه... عقب هذه الهجمات التي تحصل من هذه القبائل الثلاثة، تعقد محاكم لرد المظالم وإصلاح ذات البين، والنظر في شأن الرعية، وكذلك معرفة أنساب الأبناء الجدد... فهم يعتقدون أن..."

صمتت، ثم نظرت نحوي، نظرت في عينيّ مباشرة، نظرت إلى حدقتيّ، ربما تنظر إلى صورتها المرسومة داخل عيني، فقد كنت أنظر إليها أيضًا، فقلت لها أستحثها على الحديث:

"يعتقدون ماذا...؟"

"يعتقدون أن المعارك والقتال لا ينشب إلا بسبب المظالم و..."

"و...؟"

"وأولاد..."

"أولاد...؟"

"الزنا."

"و...؟"

"و"لام" ابني... سوف..."

رأيتها تنهال بالبكاء كما ينهال الأبله بالضحك، وضعت رأسها في حجرها وهي تبكي، سمعت لبكائها شهيقًا، ربتُّ بيدي فوق ظهرها، ثم اقتربت إليها واحتضنتها بدفء، كانت تحتاج إلى من يربت على كتفها، فقدت أبويها، وأستاذها، فقدت المعيل لها، هي ثلاث بنات لا معيل ولا أب لهن، هي أعرفهن وأعلمهن على حسب معاشرتي لها، قلت لها:

"لا عليك... ليس هناك ما يدعو إلى البكاء... فقط اهدئي..."

أجهشت بمزيد من البكاء، وكأن قلبها قد ثُقب من شدة الألم الذي يظهره بكاؤها المتوجع، هل في البكاء من معول؟ هل في النحيب لشفاء الجرح من نصيب؟ قلت لها مواسياً:

"لا عليك... هوّني عليك الأمر... هوّني عليك الأمر... كل شيء سوف يتدارك... فقط اهدئي..."

"لا أعلم... لم يحدث لي هذا... فقدت أمي... ثم أبي... وسوف أفقد ابني..."

ثم أجهشت بمزيد من البكاء، كانت تبكي بحرقة، متألمة، متفجعة، متحسرة، سياط الألم التي لا ترحمها تكاد تمزق قلبي معها، الدموع نزلت من عيني، جرت على خدي، ساخنة، مواسية لها، قلت:

"ماذا في الأمر... لم أفهم... لماذا تفقدينه... من سوف يأخذه...؟"

"هم... سوف يأخذونه..."

"من هم... الذين سوف يأخذونه... من... من هم...؟"

"القضاة... القضاة سوف يأخذونه... القضاة..."

كان بكاؤها وحزنها معديين... مؤلمين... يذيبان الصخر الأصم... ينخران الروح قبل الفؤاد... أجهشت بمزيد من البكاء، يكاد قلبها ينفطر، وكبدها ينقطع، التربيت على ظهرها لا يفلح، والعناق لا يشفي غليلًا، قلت:

"لماذا سوف يأخذونه...؟"

قالت من بين بكائها، مثل غريق يحاول الخروج من الأمواج المتلاطمة ليمسك بحبال الهواء الواهمة، فيعود بخفي حنين فارغ اليدين صفرًا، فتستقبله جهشات البكاء الحارقة لتغرقه مجددًا:

"لأنه ليس لديه أب... لأنني كنت قد ولدته سرًّا... لا يعلم به أحد سوى أختيّ..."

"يمكنني أن أكون أباه..."

"ولكنك..."

"لا... انتهى الأمر... لا تتحدثي..."

"لكنه..."

"سوف أذهب معك إلى المحكمة، وأقول إنه ابني..."

"لكن..."

"قلت لك... لا تتحدثي في الأمر..."

"لكننا..."

"لكنني... أحبك... أنت تعلمين ذلك... لا داعي للحديث مجددًا."

"لكنهم..."

"اذهبي ونالي قسطًا من النوم... لكي تتحسن حالتك هذه..."

"لكني..."

"قلت لك لا تتحدثي في الأمر مجددًا..."

* * *

لأول مرة أخرج من هذه الغرفة، العالية الجدران، الشاهقة السقف، كانت توحي بالعتاقة والحداثة معاً، كانت رمزاً لتلك الأيام التي قضتها "رحيق" وأخواتها فيها، وهن يحطن بأبيهم وهو يمسك كتاباً من أحد الكتب الكثيرة التي كانت موجودة في ذاك الدرج. خرجنا من المنزل ونحن نسلك زقاقاً مغايراً لذلك الزقاق الذي دخلنا به سابقاً، ثم سلكنا درباً أوسع، كان أوسع بحيث يبدو فارغاً رغم المخلوقات التي تسير فيه. رأيت رجلاً يحمل حربةً واقفة، وهو يقف كأنه صنم، مدرعاً بالحديد، واقفاً على بداية الزقاق، مررنا به لم يُلقِ لنا بالاً كتمثال لا يبالي بعبيده الذين يقدسونه. على الدرب هناك مجموعة من الدكاكين الفاتحة قبالة بعضها بعضاً: دكان بزاز ومعه ترزي، ودكان دروع يعرض مجموعة من

الدروع الساكسونية، ودكان نجار. كنا نمر سريعاً، كنت ملثماً بوشاح من الحرير أعطتنيه، كانت تسرع في خطواتها، وكنت أسير خلفها، كانت تلبس فستاناً ذي ألوان وأشكال مموجة، بان كفلها من خلفها وقد تقمص الفستان واحتل مكاناً في وسطه، كان في كل خطوة يهتز ويترجرج، وبان كذلك ساقاها وذراعاها الممتلئتان الرعنونتان، وقد حُزَّ وسطها منطقٌ من الحرير الناعم، وسترت رأسها ووجهها بنقاب أسود يتدلى طرفه على ظهرها، فيبين من تحته ما بين منكبيها من فتحة الفستان العليا من ناحية ظهرها، وكانت تلبس جوزاً من الخفين ذوي الصوف الكثيف المهدب. كانت تسرع وتحثني على الخطوة، يستفزني كفلها فيحرك ما في النفس من حاجات، يصرخ خلفي أحد المارين وهو يسوق عجلة حصان محملة بروث البهائم الطازج: (ابتعد أيها الشاب...)، فأبتعد قليلاً، أما هي فقد كانت تسير مسرعة.

ذاك الدرب كان سوقاً، مجموعة من الفرشين على الأرض، مجموعة من العظام على بساط في الأرض، يأخذها أحدهم فتستحيل في يده عظماً مكسواً لحماً، ينادي فيه أحدهم: (أنت محظوظاً، لم يُسمَّ عليها عندما أكل منها... محظوظ أنت)، أصواتهم مثل نهيق الحمار الأجش، عالية، صاخبة. مجموعة من الجواري على شرفة من الأرض مرتفعة، واقفات وهن يطأطئن رؤوسهن، ويعقدن أيديهن على صدورهن، وبالقرب منهن رجل يلبس طيلساً من الجلد المقوى، يبين ذراعيه المفتولتين المكشوفتين. مجموعة من الصبية الصغار يركضون خلف صبي يحمل فوق رأسه سلة من القش المنسوج.

"بكم كوم الحنطة...؟"

"بألف فشن... هذا سعرها النهائي..."

"كوم الروث... بمئة فشن..."

"تفضل أيها الظبي الشارد..."

رأيتها تبصق في وجهه، بقوة وحرقة، وكأنها تنفض تعاستها في وجهه، أعجبني ذلك منها.

"أيها الشاب الملثم... تفضل وخذ من هذه العظام التي لم يُسَمَّ عليها..."

لم أُبالِ به.

كان السوق مكتظاً بالعابرين والمارين، لكننا تخلصنا منه سريعاً، سلكنا درباً آخر، أهدأ ضجيجاً، وأقل صخباً، وأوسع من درب السوق، لكنه مليء على ما يبدو بالجنود، الحراس في حواف الدرب، كأنهم مشاعل للنيران في دهاليز القصور في العصور القديمة، مدججين بالحديد والسلاح، وملثمين بالدروع والخوذ، كانوا يرمقوننا بنظرات مريبة. سارت بينهم وهي لا تبالي بهم كالناجح في وسط القوم الحاقدين، أو ذكرى في مسالك الماضي الدفين، فسرت خلفها مطأطئ

الرأس خوفاً ورهبة من وقوفهم الواثق. أفضى بنا ذلك الزقاق إلى فناء واسع، أرضه رملية حقوف، كان فناءً واسعاً يريح النظر، تحيط به بعض جدران بيوت المدينة، وهناك أمامنا مباشرة بناية شامخة، سارياتها تبدو من هذه المسافة البعيدة، كانت مثل واجهة قصر، أعمدتها متباعدة بمسافة محسوبة من بينها، تبدو الأقواس المقاربة للسقف مثل بناية إسلامية قديمة، أو بناية مجلس برلمان. كانت تسير أمامي وتحثني على السير، مجموعة من الجنود يقفون أمام هذه البناية، كل حارس قد التزم عموداً من تلك الأعمدة، يذبون أحياناً الحشود الواقفة، والجماهير المتدافعة الذين يريدون دخول البناية. كان الوقت الضحى، والشمس تقابلنا مباشرة، وتضربنا على وجوهنا ونحن نسير نحو القاعة الكبيرة والبناية الضخمة. كانت تسرع في مشيها، فدخلت وسط الحشود، فتبعتها، ثم وصلت إلى الحرسين اللذين عند الباب،

أخرجت على ما يبدو من حجمها وشكلها المستطيل بطاقة هوية، رأيت الجندي الحارس يحييها مثل فعلهم للقادة وأكابر الرتب في الجيش، فتحا لها الباب، كنا أول من دخل إلى بناية المحكمة. مجموعة من الكراسي منصوبة على الأرض ومرصوصة بانتظام، مثل كراسي في دار غفران في كنيسة، وهناك في الطرف المقابل للباب منضدة مستطيلة وعالية من الأرض، مقابلة للكراسي، خلفها أربعة من القضاة، يرتدون بردات القضاء المعروفة، وكذلك يرتدون نظارات ذات عدسات واسعة مستديرة. وهناك في نهاية طرف المنضدة من جهة الجنوب منضدة واحدة عالية مثل المنضدة التي على شمالها، ولكنها ضيقة الحجم بحيث تكون لشخص واحد، وخلفها كرسي عالٍ يجلس عليه رجل، يرتدي تاجاً من الجوهر المرصع بالحلى، ويرتدي أيضاً عباءة القضاة المعروفة،

ولكن لونها أخضر باهت، مختلف عن البردات السود السابقة. وقفت أمام المنضدة ثم قالت:

"عمتم صباحاً... أيها القضاة... العادلين، العلماء الأفذاذ..."

"ما اسمك... وما اسم الشاب الذي خلفك...؟"

"اسمي "رحيق بنت شادوق"، يا سيدي... وهذا اسمه..."

""أسامة"... اسمي هو "أسامة عبد الجليل"..."

قلت ذلك، وكنت في غاية الهيبة من صرامتهم الحادة، حتى أنهم لم يردوا علينا السلام، ولكنهم في نهاية المطاف قضاة. ثم قال آخر من القضاة:

"وما هي حاجتك يا "رحيق"...؟"

"كان أبي في جيش عزازيل الأعظم، يا سيدي... قبل آلاف السنين، فقضى ما عليه من خدمة، ثم أُحيل ليصبح جندياً من جنود هذه المدينة... ولما أن كان في المعركة التي خَدعنا فيها ابن ذلك الزعيم، المعروفة قصته في كل المدينة،

كنت قبل مقتل أبي قد تزوجت بهذا الشاب، وأنجبت منه طفلاً، ولكن الوفاة منعتني وحدادي على أبي، وحزني قد طال عليه، فجئت اليوم حتى أسجله في المواليد..."

"ولماذا لا يتحدث هذا الشاب الذي خلفك فنسمع سيرته... ه... لِمَ تسبقين زوجك بالحديث...؟ تكلم أنت أيها الشاب."

كنت في تلك اللحظة مشوشاً قليلاً وشعرت بارتباك وضغط هائل، لم أكن أعرف ما أقول، فقط شعرت بالغيرة عليها من تلك الأسئلة الحادة التي كان يوجهها لها، قلت:

"نعم، الأمر كما قالت يا سيدي... نعم، هي زوجتي... والابن... ابني..."

"وأين الابن الآن يا أسامة...؟"

لم أكن أعرف ما أقول... فعلاً أين هو الابن... عندما جاءت قبلاً لم تكن تحمله... ولا أنا... ماذا أقول له الآن... هل أقول هو في المنزل أم آتٍ في الطريق... أم سُرق... أم

ماذا أقول... لكن سواء علي قلت أو لم أقل فإن "رحيق" قد تكفلت بالرد فقالت:

"آتٍ في الطريق يا سيدي... هو آتٍ في الطريق... مع..."

"معي أنا... إنه هنا معي... كان السوق مزدحماً، وكذلك خارج البناية... تفضلي يا "رحيق"."

كانت أختها "سحيق" تمده لها، فحملته منها أختها "رحيق"، لكن القاضي الآخر لم يمهلنا حتى انهال علينا بسؤال آخر:

"أين عقد الزواج...؟"

أخرجت "رحيق" ورقة عقد من نطاقها، وأعطتنيه، فأخذته منها، وذهبت إلى المنضدة المستطيلة، ومددته إلى القاضي، نظر إليه ملياً، وجعل يحرك نظارته يمنة ويسرى، وفوق وأسفل، وهو يقلب الورقة قلباً وظاهراً، وينظر إلى حوافها، ويداعب طرف الورقة بأصابعه الخشنة بكل لطافة ورقة، وهو مع ذلك يَحني ظهره، مثل عجوز أنهكت السنين ظهره،

ثم أعطاه للقاضي الآخر وفعل مثل فعله، وهكذا إلى أن انتهت إلى القاضي الجالس على المنضدة والكرسي المفردين.

كان القضاة الأربعة يتناقشون فيما بينهم مدة، ثم قام واحد منهم واتجه نحو القاضي المفرد، يبدو عليه أنه رئيس القضاة في هذه البناية، كانوا يتهامسون فيما بينهم، فضرب صاحب المنضدة المفردة بمطرقة على ناقوس له، فقال:

"فلتعيشا بسعادة وهناء... ولتكن حياتكم خصبة مبروكة... مليئة بالرحمة والحب والعيشة الطيبة والحياة الجليلة..."

فقلنا ثلاثتنا بصوت متناغم واحد:

"بارك الرب فيك... أيها القاضي العادل، والإمام الجليل..."

مدّ القاضي إلي الورقة، فأخذتها منه، وأكب نفسه على ورقة أخرى يكتب فيها، سألني عن اسمي كاملاً، واسم أمه

كاملاً، واسم الابن، فأخبرته، ثم ختم الورقة بطابع كبير أزرق، ثم أعطاني الورقة، نخرجنا من القاعة مثل ما دخلنا.

* * *

عبرنا الحشود الواقفة أمام البناية إلى وسط هذه الساحة الكبرى، رملية حقوف مثل ما عبرنا منها أولاً، كنا ننظر إلى الجنود عند مدخل الدرب الذي أتينا منه، كانوا كما كانوا، واقفون، لا يتحركون، ولا يلتفتون كأنهم أعجاز نخل ثابتة.
كانت "رحيق" تسير أمامنا، وأنا أسير خلفها وخلفنا "سحيق"، نسير في خط مستقيم مثل أحداث الزمان، رمقتني "رحيق" بنظرة إلى خلفها ثم قالت:
"أين تريد الذهاب...؟"

الحق يقال، لم أعرف في هذه المدينة الوهمية سوى هؤلاء الثلاث بنات، وهذا الصغير الذي تحمله أكبرهن، فقلت لها:

"إلى البيت طبعاً... ليس هناك غيره... أذهب إليه..."

"ليس هذه المرة بالطبع..."

"ماذا...؟"

قلت ذلك، وأنا أحاول اللحاق بها، لكنها أسرع مني في المشي، فظللت أنا في الخلف وهي تسير أمامي، فقالت وهي ترمقني بنظرة أخرى إلى خلفها:

"انتهت مهمتك..."

"ماذا... انتهى ماذا...؟"

"ليس لنا بك حاجة... بعد اليوم..."

"ماذا يعني هذا... هل يعني...؟"

"أنت من عالم... ونحن من عالم آخر..."

"لكني أحبك... أعني العلاقة التي كانت..."

"كان مجرد... شيء عابر... أنسَ الأمر..."

"لكننا أصبح نفهم بعضنا البعض... أنت وأنا شيء واحد..."

"قلت لك لم تعد لنا بك حاجة... فلترحل بهدوء... ول..."

"لكنكم أصبحتم... نحن أسرة واحدة..."

"دع كلامك هذا... فقد انتهى الأمر..."

"لكن... أنا... أنتِ..."

كنا قد اقتربنا من الجند الواقفين على الدرب، فوقفت "رحيق" والتفتت نحوي بكل جسدها، ثم قالت وهي تصيح في وجهي بصوت عالٍ:

"ماذا تريد... أيها اللص... أيها السارق...؟"

نظرت خلفها إلى الجند نظرة سريعة خاطفة، لمحتهم بطرف عينها لمحة لكي ترى إن كانوا قد سمعوا مقالتها، فهمست إليّ بصوت خافت كأنها تحدثني سراً:

"أترى ذلك الجبل هناك... ذي اللون الأخضر...؟ هناك غرفة تدعى غرفة الإيمان، في داخلها صخرة اسمها صخرة اليقين، مغروز في باطنها سيفاً يسمى سيف الاستعاذة... وتجد درعاً اسمه درع البسملة معلقاً في جدار الحجرة فارتده... إن دعت الحاجة لذلك..."

ثم صرخت بأعلى صوتها وهي تستغيث بالجند:

"أيها الحراس... أيها الحراس... النجدة... فلتلحقوني... هذا الفتى يريد قتلي... آي... النجدة..."

ثم همست إليّ بصوت خافت:

"فلتهرب إلى تلك القلعة في أعلى الجبل... أو ستعيش في براثن العذاب إلى أن تموت..."

لم أجد بداً من الهرب، كنت أسرع من الخيل المرسلة، وانطلق الجند خلفي بدوابهم الغريبة الأشكال، رأيت، من خلال تلك الومضات التي كنت أستشفها من خلفي، أن

أحدهم يركب قطة سوداء كبيرة مثل دب مفترس قاتل سعران، ورأيت فيما يرى الحالم تنيناً أو ما يشبه التنين، يقفز طالبني، ويمتطيه فارس مدرع. كانت ومضات من الالتفات رأيت فيها نوائب الرعب الحقيقي، كأنهم حلم من أحلام الأطفال المخيفة، رأيت رجلاً رأسه رأس إنسان وذراعاه كذلك، ولكن قوائمه قوائم فرس، شديد، نشيط، رأيته يركض طالب قتلي، على أرى من شجاعته. انطلقت مثل الريح المرسلة، والخيل السابحة، كنت أجري ولا أنظر خلفي، خلفي الشريزر زيراً، وأمامي الغرفة... التي ربما أجد فيها النجاة... دخلت الغرفة مسرعاً... كان بابها خشبياً من الطراز القديم المهجور، البالي، كان وكأنه عمر آلاف السنين، دفعت الباب بشدة، بقوة، ولكنه لم يفتح... حاولت المرة الثانية، ودفعت بقوة، ففتح معي... كانت الصخرة في وسط الغرفة، كبيرة، صلدة، صلبة، تكاد تكون

دائرية الشكل، لولا بروز أحد الزوايا في جوانبها... والسيف فيها مغروز... كأنه لغز فقدت حبكاته التي تحله فأصبح شيء من الخيال والأسطورة، والحلول والبدل، السيف من الصخرة، والصخرة من الجبل. وضعت يدي في مقبض السيف، كان ملمسه من العاج، جلد ملفوف حول حديدة، ذوائب المقبض بارزة تسمح للكف والأصابع أن تتمكن من قبضة السيف، لفت أصابعي حول مقبضه، وأردفت كفي الأخرى حول كفي الأسفل، وأحكمت مسكته، وجعلت أقاوم في إخراجه من الصخرة، لكنه كان سلس الخروج، على خلاف ما ينؤ به طريقة غرزه، وكيف كان يبدو وهو مغروز على الصخرة، خرج بكل سلاسة، مثل ما تخرج الشعرة من العجين. كان صافي اللون، كأنه جديد، يلمع مع ضوء الشمس الآتي من الباب. كان الجنود قد وصلوا بالخارج، وأصبح الجبل يضج بحضورهم: (فلتقتلوا...

هذا اللص... السارق)، كانت أصواتهم تعلو، وصوت حوافر الخيل يدنو من الغرفة: (أين هو...؟) فيجيب عليه صوت آخر: (دخل الغرفة... دخل الغرفة... لا أعلم كيف ولكنه دخل...) ويجيب عليه صوت آخر: (هذا غريب... كيف فعل ذلك... لعله ليس جنياً) ويجيب صوت آخر: (لا تدخلوا... داخل الغرفة... فسوف تهلكون). لبست الدرع المعلق على الحائط... وخرجت من الغرفة، كنت مثل جندي مغوار، كامل العدة والعتاد، رأيت عفاريت الجن وأبناء القبيلة الأشِداء، والمقاتلين البواسل، والمحامين للقرية حين شهرت سيف "الاستعاذة". أنزو على الصخور والخيول وهم يلتصقون ببعضهم البعض حتى أصبحوا كقطيع الضأن حين يدهمه المطر. شع السيف نوراً أصم الآذان وأعمى الأبصار، ومضة ومضت جفلت منه القلوب والجوارح، فأصبح نوراً فقط... ضياءً فقط.

فإذا بي، والظلام يحيطني من كل اتجاه... كانت الغرفة المهجورة قد غطاها الظلام كذلك... وكذلك شجيرات "النيم"... والدرب خالٍ تماماً من كل أحد... كان خيال راودني... وهماً أغر بي... لعله هاجس الغروب... أو سحر الليل... أو نسيم الآصال... لم أدخل الغرفة... ولم أسمع الصوت... لا صوت الطفل ولا صوت الضربات... كان خيالاً في الذهن... لم يكن باب الغرفة مفتوحاً ولم أذهب إليها بتاتاً... ولم أُحبس في تلك الغرفة إطلاقاً... كان وهماً... حلماً... خيالاً في الذهن... لعلي لاقيتها أو لم ألاقها... لعلي أحببتها أو لم... لعله... لعله... لعله بداية الجنون.